سَلام عِيدة
رواية
الاستثناء الجميل
"رواية عن المجتمع الإسرائيلي"

سلام عيدة

الاستثناء الجميل

رواية عن المجتمع الإسرائيلي

الكتـــــــــاب: الاستثناء الجميل

الـــمـــؤلـــف: ســـلام عـيدة

الغـــــــــلاف: محمد عيد

المراجعة اللغوية: سارة صلاح

رقـــم الإيـــداع: 2013/21391

الترقيــم الدولــي: 2 - 46 - 6447 - 977 - 978

مدير قسم النشر: فتحى المزين

Fathy66666666@yahoo.com

01282288056

التجهيز الفنى: إبداع

أ/ حسين الحماقـــى

01006674335

الإشراف العام: عيد ابراهيم

جميع الحقوق محفوظة

وأى اقتباس أو تقليد أو إعـادة طبع . دون موافقة كتابية . يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب تقع على مسئولية الكاتب فقط لا غير.

العنوان: 6 شارع التحرير، محطة مترو البحوث، الدور 18، رقم 1902

الموقع الإلكتروني: www.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com / Fathy66666666@gmail.com

سلام عيدة

الاستثناء الجميل

عن المجتمع الإسرائيلي

Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

الإهداء

إلى ثالوثي المقدَّس: الرب، ثم الأب، والحِب..

وما كان سببًا لهما، وما كانا سببًا له.

وإلى" باربرا" صديقتي اليهودية الإيطالية الجميلة المتضامنة حتى النخاع مع كل إنسان حيثما كان...

إلى "باربرا" وكل إنسان جميل تحتله روح محبة كروحها.

* * *

مقدمة
(حدثَ بالفعل)

قبل أن يجمعنا "مارك زوكربيرج" من شتات منتديات الحوار في الإنترنت، ويمنحنا هويات ثابتة في موطن"الفيسبوك"، كنت قد طرحت موضوعًا للنقاش في ساحة حوار ما، حول مُسعِف فلسطيني ينقذ فتاة يهودية من حادث سيارة مميت، وأثار ذلك جدلاً واسعًا لأيام، حتى اعتلى منصة النقاش بلا منازع. ولأني حديثة عهد بروَّاد الساحة، لم أعرف أن موضوعي هذا بالذات قد أثار أشجانًا وحرك مواجع، فأعاد بعضهم مرتدًا إلى توحده الذاتي مع فقيده. وكان جنون المنشورات شهرًا كاملاً بعدها، وأنا أتعجب مما يجري، ومن تلك اللغة الهاذية حول حبيب ضائع وشوق مغالب وأحلام تائهة بين النجوم، ووعد بلقاء سماوي أنيق.

حتى إذا وصل الأمر به حد الإرهاق النفسي، سيسكن قليلاً أو كثيرًا، معتزلا الجميع يبكي بمرارة "هكذا قيل لي دون أن يوضِّح أحد سبب ما يجري وعلاقتي به" ثم سيعود لتوازنه المعتاد، فلا تقلقي،

وهو بنفسه سيوضح لك ما يجري لو شاء.

كان هذا الرد الوحيد الذي وجدته في صندوق الرسائل يجيب عن تساؤلاتي وحيرتي أرسله مُشفِق عليّ.

وعاد فعلا رزينًا هادئًا كبحرٍ ساكن بعد إعصار مدمِّر، لا يعذبه ضميره بعدد ضحاياه.

لم أشأ أن أكلمه في شيء، غير أنه كتبَ علانية يخبرني بكل شيء، فقد ذكّره حادث السيارة بحبيبته التي فقدها منذ سنين خلت، وللصدفة فهي يهودية أيضًا.

تأثرت لكلامه وتعاطفت معه، لكنني شعرت بضيق حين ختم كلامه بقوله: "أنا آسف، لأنني أقول لكِ هذا الكلام ولا أراعي مشاعرك كفلسطينية"

كان كلامه صادمًا لي لدرجة الصمت المطبق. وددت لو أسأله صارخة: أتعتذر عن حُبِّك ووجعك؟ أترى حقًّا أننا كفلسطينيين لا نعرف معنى الحُبِّ؟ ولا نقيم للإنسانية وزنًا إن لم تكن في صالحنا؟

قلت له أخيرًا بلسان متحدثنا الرسمي محمود درويش: "لا تعتذر عمَّا فعلت!"

وقررتُ في نفسي أن قصته تستحق التأمل، والكتابة عندي تأمل، والحرف صوت صامت.

نسيت تلك القصة فترة طويلة، نسيت أن أغتالها من فكري على الورق، فظلت تراودني وبقيت أتحدث عنها هنا وهناك كشفرات موجعة تجرح قلبي فيسيل من لساني دم القِصّة الشهيدة.

لم أتذكرها ثانية كما يجب، إلا في محطة الباصات المركزية بالقدس الغربية، بعد سنين طويلة.

فقد وقفتُ في يوم خريفي أبحث عن المحطة المناسبة لي، كانت المواقف كثيرة، وباصات "أيجد" أكثر، يجب أن أقرأ أرقام خطوط الباصات المدونة على لوحة معدنية صفراء فوق كل موقف، لأعرف على أي أرض سأقف لأنتظر الباص الذي سيحملني إلى وجهتي: القدس الشرقية.

كان نظري للأعلى، يتابع الأرقام، لذا لم ألحظ بموازاة رأسي شابًا اقترب منّي جدًّا، يتأملني بشدة. انتبهت على صوته يكلمني بالعبرية، لم أكن بارعة جدًّا بها، لكنني أستطيع إدراك مقاصد الكلام، وأملك موهبة الردود المقتضبة التي لا تفضح ضحالة مفرداتي، لذا لم أرتبك حين بدأ حديثه.

كان شابًا شديد السُمرة، وكأنه من أصول عربية يمنية، قبعته السوداء وملابسه السوداء تبين عن شاب يدرس في معهد ديني يهودي على الأرجح، كذلك سوالفه الأنيقة المُعتنى بها جيّدًا عرّفت به بشكل لائق.

ظننته سيسألني عن الطريق، ضحكت في سري، تائه كيف سيرشد تائهًا مثله؟! كلانا يا صديقي يشعر بالغربة على الأرجح وضل طريقه وسط الزحام.

لكن ما قاله حبسَ أنفاسي لبرهة. شككت للحظة في سلامة فهمي للعبرية، ولكن عيونه التي تبرق بشدة وابتسامته الخجولة، لم تدع مجالا للشك.

أنت تخبرني أنك معجب بي وتريد معرفة عنوان بيتي لرؤية أهلي؟

لعلّ صمتي للحظات أربكه، فتلفت حوله لا يعرف ماذا يقول، أما أنا فعجزت حتى عن الالتفات، كنت أفكر لا شعوريًا بآلية الهرب.

خطر لي لحظتها ألف فكرة وخاطرة.

لماذا؟ هل يعرف أني مسلمة؟ مستحيل! ماذا أعجبه فيّ؟ ماذا فيّ يشبه اليهوديات المتدينات ليجذبه إليَّ؟ لا شك أنها ملابسي، بمعطفي فرنسي الطول، ومنديلي المسحوب إلى الوراء كاليهوديات المتدينات.

تركت كل الأسئلة، واكتفيت بسؤاله هو لأجيب عنه في تلك اللحظة، قلت بعبرية ركيكة رغم حُسن لكنتي: عفوا، لا أتكلم العبرية جيّدًا، وأنا هنا سائحة ولست مقيمة في البلد. شالوم!

بالكاد حملتني ساقيّ لأختبئ وسط الزحام، لم أجرؤ يومها على الالتفات للوراء، هل سيلحقني؟ لم أجرؤ على التفكير بذلك. ماذا لو عرف أني مسلمة عربية؟

ابتسمت ابتسامة خائفة: سيحقد عليَّ! سيُقضَى عليَّ!

كنت مصدومة لدرجة العجز، ومزدحمة بالأفكار والتأويلات، وأنتظر بنهمٍ أن أهدأ لأستلذ بتحليل الموقف.

أعاد هذا الموقف إليَّ تلك الأفكار المحمومة حول العلاقات الإنسانية والهوية، فكان لابد أن أهدِّئ روعي بالكتابة، فكانت هذه الرواية التئام أسئلة طالما أوجعتني.

***

الرواية

دخلت المقهى في كامل أبهتها، ورغم أن "رام الله" عاصمة الأزياء والأضواء في فلسطين، إلا أنها وهي تلك الفتاة الخليلية قد استطاعت أن تتفوق على جميع الحضور بطلتها المميزة واللافتة للانتباه، لعلّ ذلك يعود إلى أصولها المقدسية من طرف أمها، مما يجعلها صاحبة قدرة استثنائية في جلب الأنظار وتصيُّد عدسات الكاميرات نحوها. حتى في المرحلة التي ارتدت فيها النقاب كانت قادرة على لفت الانتباه، وسرقة اهتمام كل من تقع عينه عليها. تذكر أيام إغلاق الجامعة أنها الوحيدة التي لفتت نظر المصور الصحفي ليلتقط لها صورًا كثيرة، وتذكر أنها في تلك الأيام كانت تحصد الكثير من تعليقات الإعجاب، أو تتعرض للتحرش في الشوارع. هل السِرُّ في جمال عينيها اللتين تُبرزان مع لبس النقاب؟ هل السِرُّ في جاذبيتها التي تشبه العِطر الفواح؟ هل الأمر متعلق بالرجال؟

في المقهى؟

لم تبحث كثيراً ليقف من بعيد رافعًا يده وداعيا لها بالتفضل

للجلوس. لقد عرفها سريعًا من صورها في الفيسبوك، وهي كذلك عرفته بشعره الأجعد ووجهه الممتلئ وملامحه الضاحكة.

مدَّ يده مصافحًا، ترددت للحظات لم يكن لينتبه لها لولا أنه رجل يجيد قراءة الأفكار ومراقبة الانفعالات. مدت يدها مصافحة بعد تفكير سريع، فهي ذات اجتهادات لحظية. هو من رام الله بلد العشق الخفي والممنوع في آنٍ واحد، والمصافحة لا تشير هناك إلا على نوع من المجاملة والود. في الخليل المصافحة تُعدّ ضوءًا أخضر لقبول علاقة غير شرعية عند بعضهم، بل عند أغلبهم، كالابتسامة، تعد جواز مرور للجسد!

أذكر المثل الذي همست به معلمة في أذني مرَّة :«البنت إن ضحكت وبان سنها الحقها ولا تهَب منها». كان يهمها الحلال والحرام جدًّا في حياتها، ولكنها رأت أن تلك المصافحة من واقع العُرف الاجتماعي ليست حرامًا، كمصافحة شاب قريب كانت في يوم تطعمه على حجرها، أو تغير له حفاضه. تساءلت: العلاقات الإنسانية قَطعًا أوسع من فِكر الرجل الشرقي والخليلي المحصورة في الجنس والعيب!

مدَّت يدها مصافِحة، ثم جلست، ابتسمت له بخجل، فهذا أول لقاء بينهما، سعيدة جدًّا وأشعر بفخر أنني أجلس بحضرة أديب حقيقي مثلك! ردَّ بهز رأسه وحركة من يديه مع ابتسامة متواضعة رافضًا اللقب،

ثم قال: أديب؟ لقب فضفاض ومش على مقاسي!

«لكلٍ قناعاته» قالت لنفسها فلم تجادله مؤكدة رأيها فيه.

لم يطل صمتهما حينما جاءتهما القهوة، وبدآ يتحدثان في أعمال الرواية المشتركة التي لاحت في أفق الفيسبوك فكرتها. هي سمعت باسمه كثيرًا من قبل من خلال مجلة «بلسم الطبية»، وأدهشها قبوله طلب الإضافة بكل ذلك التواضع والألفة التي لقيتها منه. هو انجذب لحروفها من خلال تعليقاتها عنده، واندهش كيف تستطيع بتلك السهولة أن تفهم مرامي كلامه وتفسرها كما لو أنه هو!

قالت بعد أول رشفة قهوة وقد بدت لها غير طيبة كقهوة حمادة في الخليل -طبع أهل الخليل يجيدون تقييم جودة القهوة-، ولا يجدون أطيب من قهوة الخليل المحمصة محليًّا من البن العدني أو البرازيلي، عكس قهوة القدس وبيت لحم المخلوطة بالبلوط المحمص!

«عندي تصور كامل لروايتي، ولكنني أشعر بالخوف من البدايات ومن المتاهات!»

رفع عينيه بدهشة معلِقًا: وأنا كذلك.

-جئتك طالبة المشورة فهذا ما ألقاه منك؟ لا بد أن تجد لي حلاً! خاصة أنك ستشاركني في بنائها، هي وليدنا الشرعي بلا زواج! وأولاد

الفكر أوثق عُرى وأشد حاجة للإخلاص والجهد من مواليد الجسد.

تبسَّم ضاحكًا من قولها: أنتِ تفلسفين كل شيء فمن منا الأحق باللقب؟

-روايتي لها علاقة بالفيسبوك، فهل أبدؤها بِقصة حصلت معي حول شاب سعودي يزعم أنه أحبَّ يهودية وأسلمت على يديه قبل أن تموت ثم عاش مخلصًا لذكراها؟

-هل تملكين دليلاً على صِدق كلامه؟

هزَّت رأسها بنفي معلقة:

-لا، سوى أنه لم يتزوج للحظة، وهو يقول إنه أمير سعودي أو مقرّب من تلك الدائرة.

سرحَ قليلاَ، ثم تنهد، وهي تراقب شفاهه فيما سينطق به:

-بما أن الرواية ستكون عن الفيسبوك، فلا بد من شخصية وهمية تنسجينها، تكون المنظم في كل تلك العلاقات المتشابكة، وتكون الصوت الذي يصعب عليكِ الجهر به، إنه أنت، وجهة نظرك الأخرى التي لا يمكنك الإفصاح عنها.

أجابت ببعض الحماس:

-ولكنني فعلا أعرف شخصية كتلك، وهو حقًّا فيلسوف ومعلم، ويمكنني استدراجه للحديث دون أن يعرف مقصدي الحقيقي.

أسند ظهره للكرسي بعد انحناء طويل على الطاولة، مؤذنا بقرب انتهاء اللقاء المشمشي النضج، سائلاً عن طريقها من الخليل، والمشقة.

أجابته وكأن الجواب روتيني رغم أنها تعرف أن عندها بعض التجديد في الأحداث:

-أنا من حملة هوية القدس، جئت عن طريق معبر قلنديا، صحيح ركبت أربع مواصلات خلال أربعين كيلومترا، ولكنني في طريق العودة سأركب مباشرة للخليل عن طريق واد النار.

قال بوداعة ساخرة:

-أهل القدس يقبلون دخول واد النار! هذا تواضع جم يا سيدتي.

-لا تكن غليظًا، أنت تعرف أن أي شخص يفضل طريق القدس إيابًا على طريق الموت تلك، ولكن يبقى طريق واد النار نعيمًا أمام جحيم التفتيش على معبر قلنديا في عودتي للقدس. يجب أن أذهب الآن لأتمكن من الوصول قبل غروب الشمس، أنت تعرف صعوبة الطريق.

-لا بأس وأنا كذلك يجب أن أذهب لموعد مع مجموعة أدباء،

هل تحبين أن أدعوكِ يومًا معنا؟

-يسرّني ذلك.

قالت بحذر، ولم تكن تعتزم الذهاب لو دُعيت، فهي تحذر جدًّا رجال رام الله.

لكِ منّي نصيحة:

-وأنتِ تكتبين قصتك لا تشبهي أحدا.

ابتسمت ثم مضت تاركة له دفع ثمن القهوة، حسب الأصول المتعارف عليها، ولو أنها كانت ثائرة من عالم آخر وتفضل فعل ذلك بنفسها، لكنه اختراق لدائرتها واقتحام لدائرة الرجولة الشرقية، هكذا سيفهم موقفها لو فعلت، خاصة في أول لقاء.

شدَّ على يدها وهو يصافحها:

-سيكون لنا لقاءات أخرى كثيرة، سأرسل لكِ مادتي التي أكتبها، وافعلي أنتِ كذلك.

-شكرًا، أقدِّر لك كل شيء، وشكرا لفنجان القهوة.

قهقه بصوتٍ عال: فنجان القهوة؟ المفروض نعزمكِ على مسخن رام الله الشهير، لكن أنتِ عارفة الرواتب ما نزلت، والحكومة تماطل.

-كان الله في العون.

قالتها، ثم ودعتْه ومضت.

- ١ -

صفقت الباب وخرجت لا يغطي جسدها إلا ثوب النوم الرقيق الأسود. كانت تحاول إدخال يديها في روب طقم النوم الدانتيل بعصبية وتوتر، تعثرت بالسجاد الخمري الذي يغطي ممرات الفندق، سمعت صوت الباب ينفتح خلفها، نظرت سريعًا.. كان يراقبها ووجهه الأحمر يكاد ينفجر من فرط الغضب، أشاحت وجهها عنه، وجسدها كله يرتجف من فرط الانفعال، عبرت ممرات عدة، حتى وصلت إلى غرفة تبديل الملابس، اصطدمت بفتاة خارجة، كانت الفتاة مصدومة من مرآها تتحرك في الفندق بثياب النوم، هذا التصرف يمكن أن يؤدي إلى طردها. لم تعلق فقد رأت في وجه«راشيل» من الانفعال ما يدعوها للصمت.

جلست على أريكة مخملية خمرية، بحثت عن سيجارة، أشعلتها بيدين ترتجفان وتجرعتها بسرعة، كمن يغتصب فتاة على عجل، كانت تبحث عن كأس فودكا تهدئ من روعها، لكنها لم تجد، زاد ذلك غضبها.

لم تمضِ دقائق معدودة حتى دخل المسئول، الغرفة وعلى وجهه يبدو أنه غير راضٍ عنها. كانت مستعدة لتقديم دفاعها كاملا، لكن

وجهه النحيف وعينيه الضيقتين، وبذلته الفاخرة التي لا تليق بجسده النحيل جدًّا، جعلها تشيح بوجهها عنه، شعرت أنه بشع فوق العادة، ولونه داكن فوق العادة، ورائحة جسده مقززة فوق العادة.

- راشيل ما فعلتِه، هل تدركين عواقبه؟

قالت بإصرار:

-عليك أن تعرف وجهة نظري، لم أفعلها من قبل، لكن هذا الوحش! هل تعرف ماذا طلب مني؟

حضنها فشعرت بقرف، كادت تدفعه بعيدًا، لكنها خافت من أن تزيد الموقف سوءًا، فهي بالنهاية بحاجة لأن يتفهم موقفها.

- راشيل، حبيبتي الجميلة، أنتِ تعرفين أننا لا نستطيع رفض رغباته، نحن هنا نأخذ مالا مقابل تحقيق تلك الرغبات، تحملي قليلاً، ثم ينتهي كل شيء.

- ابحث عن أخرى.

- إنه لا يريد غيركِ، كان غاضبًا، لكنه يصر على عودتك.

- لن أعود.

- ستعودين - ابتسم - لقد وعد بدفع ألفي شيكل أخرى!

سأعطيك نصفهم.

- لا يمكنني ذلك، المبلغ لا يساوي تلك الندب التي سيتركها في جسدي حين يفرغ لذته ذلك السادي

راشيل "قالها ببعض الغضب" أنت تعرفين.. ثم قاطعه صوت الهاتف المحمول.

أنصت قليلا، والتفت إليها بعد أن أنهى المكالمة:

- راشيل، إنه يدعوكِ للعشاء في قاعة الفندق، لا تكوني غبية، إنه رجل نافذ يحمي عملنا، لو أغضبناه، ستكون العواقب سيئة، نحن مجبرون على إرضائه. غيِّري ملابسك، إنه ينتظرك في الأسفل خلال عشر دقائق.

قال ذلك وخرج، لم يترك لها فرصة للرفض أو حتى الدفاع.

كانت قاعة الفندق مرصوفة برخام عسلي اللون، في منتصفه شكل دائري من رخام خمري، يتخلله بعض الرخام العسلي بخطوط طويلة، وفي منتصف الدائرة طاولة خشبية مزخرفة تعلوها مزهرية فيها ورود شامية خمرية، وبعض الزنابق بلون البيج وزهور الثلج، كانت الصالة كلها مفروشة بأثاث خمري مخملي. لم تكن الصالة توحي بأنها فندق من الدرجة الثالثة وأنها تقدم خدمات الدعارة المرخّصة.

خرجت راشيل من المصعد.. تنفست بثقلٍ وبعمقٍ.. تلفتت تبحث عنه.. اختار طاولة في الزاوية تحيط بها أرائك جلدية متصلة بشكل نصف دائرة، بمقاعد خمرية وعسلية على التوالي. تصنعت الابتسام حينما التقت عينيها بعينيه.. اقتربت منه.. كان منتشيا بلذة الانتصار.

كان مبهورًا كما دائمًا بمظهرها.. ارتدت فستانًا مكشوف الذراعين، أسود اللون، مفتوح يكشف عن فخذها الأيسر، مع شال يحيط بظهرها ويلتف على ساعديها الأبيضان جدًّا، وقرط من مجوهرات مزيفة يلامسان كتفيها.

كان وقع مرآها يبعث على الاحترام لسيدة أعمال أو فتاة مدللة من بنات أثرياء المجتمع الإسرائيلي الغربي، لولا ملامحها الروسية الواضحة.

استغربتْ كيف صافحها بلطف، طلبا العشاء الفخم، وتناولا شرابًا فاخرًا، كان ينفق بسخاء، شعرت بأنه رجل آخر، كيف يمكن لهذا الرجل المهذب أن يكون ساديًّا وشاذا في الفراش إلى ذلك الحد! لعل مديرها لا يصدقها نظرًا لطريقة هذا الزبون في التعامل مع الآخرين.

صعدا إلى الأعلى وعيون المدير تراقبها ورأسه يهز حركات تشجيع.

غادر الزبون وتركها في الغرفة وحيدة، كان استثناء أن يسمح لها

المدير بالبقاء في الغرفة لمدة عشرين دقيقة إضافية بعد رحيل الضيف، لشدة ما شعرت بألم في كل زاوية من جسدها وروحها. كانت تشعر وهي ممددة هناك بلسعة برد شديدة، رغم أن المكيف يعمل بشكل فعال. كانت برودة داخلية بسبب الهبوط الحاد في المعنويات.

بدأت ذكرياتها السيئة تراودها، كانت تعلم ذلك، أصبحت تلك الحالة متلازمة نفسية منذ وصولها إلى إسرائيل.

في الطائرة المتوجهة إلى إسرائيل، كانت الرؤوس مثقلة بفعل الفودكا الممزوجة بأحلام عريضة. كانت هجرتها لأسباب اقتصادية بحتة مثل كثيرين ممن هاجروا مع بداية الألفية الثانية.

لكن تلك الأحلام العريضة والوعود الثقيلة في روسيا، تجمدت داخل الكيبوتسات المعدنية الباردة التي منحت لهم.

تذكر كيف طال بحثها عن عمل، لكن عدم إتقانها للعبرية كحال كثير من الروس الذين انقطعوا عن معاهد تعليم اللغة، وآثروا عدم الاندماج، لم تتح لها فرصة كبيرة للعثور على عمل مناسب. كانت ترزح تحت عبء ضغط أمها في روسيا التي ترسل ترجوها بمزيد من المال.

كان هذا هو العمل الوحيد المتاح، لا يحتاج إلى لغة.. استغلت جمالها واستغلوا وضعها.

قلبت ظهرها، نامت على جنبها اليمين، فشعرت بألم حاد، مع طرقات خفيفة على الباب. كان صوت صديقتها«أنيتا»، سمحت لها بصوت ضعيف بالدخول.

جلست أنيتا على حافة السرير، نظرت إلى راشيل بنظرات حانية:

- أحسنتِ صنعا يا صغيرتي. كنت عاقلة هذه المرَّة أيضًا.

- لقد كان متوحشا وساديا أنيتا.

- لكنه يجيد منح الهدايا الثمينة.

وأشارت بعينها إلى علبة مجوهرات مخملية كحلية اللون، مغلقة على خزانة السرير القصيرة.

حكت راشيل شعرها، وتنهدت.

- لن يكون هناك مرة قادمة.

- راشيل، لا تكوني عنيدة، في المرة التي ترفضين فيها ستجدين نفسكِ بلا وظيفة.

- لي زبائن كثيرون، لن يتخلى عنّي المدير.

- ما لا تعرفينه أن هذا الرجل حسبما سمعت، رجل كبير في الدولة، من الممكن أن يخسر الفندق الكثير لو غضب هذا الرجل،

ثم إنه من السهل إيجاد أخرى، تعلمين القاعدة التي تقول "إذا أطفِئَت الأضواء فكل النساء في مهنتنا سواء"!

- فندقنا مرخص.

- قرار غاضب صغير يجعله غير ذلك، لا تكوني عنيدة ومغرورة. قومي لتخلي الغرفة، أمضيتِ عشرين دقيقة هنا. لقد منحك المدير إجازة لباقي الليلة.

***

فتحتْ جهاز "اللابتوب"، بدأت أولا برسالة سريعة إلى صديقها الفيلسوف الذي انقطعت أخباره منذ مدة، تستشيره في شئون الفيسبوك، وأثره في العلاقات الاجتماعية.

قامت لتجهز فنجان قهوة ثقيل ولتشاهد مسلسلها المفضل، تركت الجهاز مفتوحًا بانتظار الرد منه.

جاء رده مسفّها لكل أفكارها: بعد هاءات كثيرة تمثل ضحكته العريضة كتب: هل هناك عريس على الفيس وتريدين رأيي؟ دعكِ من سخافات الحُب الإلكتروني، فالله وحده يعبد بلا مشاهدة!

غضبت جدًّا لكنها بحاجة لرأيه.. قررت أن تسايره فيما خطر له،

ثم تستدرجه بأسئلتها حول ما تريد.

قالت له: تنسج مخيلتي سيناريو مثاليا، دائم التدفق، تلقيه على كل من يريد خلع لقب "حبيبة متوجة" عليَّ في مدينة الحب، وأهرع إلى عرَّافتي في كل مرة يشعر فيها قلبي بالوجع.

سئمت كل هذا!

سئمت جروحي، وبريق دمائي.

سئمت الوقوف طويلا بالأبواب.

سئمت العيش في مدن الأحزان.

أشتهي موتا كاملا، أو هروبا جميلا.

ولكنني أخاف دومًا من نبوءة، وأعشق نبوءة. إنني أخاف أن أكون كليوباترا، وأشتهي أن أكون بنت السلطان التي تتزوج قديسًا أو نبيا.. هل أنا طموحة فوق العادة؟ أم أنا متواضعة لدرجة أن أستكثر في حقي السعادة؟

في عُرف أهل الشرق، قد بلغت حدًّا لا يمكن معه الزواج لأمثالي.. يا له من حزن! لكن من يراني يدرك أنني لا أعيش عمري الأرضي، بل عمرًا لا علاقة له بحسابات الشمس والقمر، وبعدد ما مر بي من دورات شهرية! رحمي طازج وغض وفيه شهوة الميلاد. قد تراني حينا ابنة

عشرين في عزيمتي وإرادتي لأكون كما أريد يومًا، وأحيانا ابنة الثمانية عشرة ربيعًا حينما أفرح وأندهش، وأحيانا ابنة الستين في الحكمة.

وقد جاءني خاطب عن طريق الإنترنت، بعد قطيعة بيني وبين الخاطبين، خاصة من أهل البلاد، فليست بطباعي التي تناسبهم، ولا عاداتهم بالتي تروق لي. وإنني امرأة تعشق السفر وتهوى فرصة للبدء من جديد في مكان بعيد، لا عيون ترقبني ولا ألسن تلاحقني. إنه يحمل الدم التي في عروقي، فلسطيني مثلي، وقد جربت كل أنواع الرجال وتذوقت حُبهم من مشرقيين، ومغربيين، ولكنني لم ألقَ راحة ولا سكينة. لم أتمكن من الاستمرار أبدًا.

تهتف في سرها: "سيصدق كذبتي ويظن أنه مثلهم؟. وكأن قلبي مقبرة للرجال.

قلبي مقبرة الرجال!

كَمْ مِنْ رجل انتحر على شفا حفرة من الاقتراب من حياتي وذكرياتي؟!

ولست أبالي!

ودائمًا من كل قصة، أطلب البدايات، وتموت على يديّ النهايات.

عذرًا لكل الرجال الذين أحبوني..

عذرًا لكل من صادفوني على عتبات حُلم بطعم الألم..

لا يعتريني الندم..

ما دام طريقي الصيفي المحموم سيوصلني إليك..

لا أعتذرُ عمّا فعلت..

فأنا امرأة لا أنحني لألتقط شيئًا سقط من نظري..

ومن خرج من حياتي بإرادته لا يعود إلا بإرادتي..

ولن يعود!

في طريقي المُعبّد بقلوب الرجال لا أندم على شيء ولا أحنّ إلى أحد.

لن تجد في قلبي زاوية لعشق مات، أو أثر اشتعال للغابات أو رائحة الذكريات والغايات..

قلبي حليبيٌّ، كجرح سال من شجرة المطاط، يتمدد ليتسع المجرّة، لكنه لم يتسع يومًا لبشري بنكهة رجل.

لست نادمة على شيء.. من فراشاتٍ تعثرت، أو شموس أشرقت أو غربت في حياتي

لا الخير الذي صادفته أو الشر.. كلهم عندي سواء

كل شيء محوته وطواه النسيان

لا أحتاج إلى ملء كيسٍ بالأمنيات، أعلقه على شجرة الميلاد،

ولا يهمني العثور على خاتم سليمان

لا شيء مطلقًا يجتذب النحل إلى رحيق الأمنيات

أنا الآن بلا ماضٍ، بلا ذكرى، بلا توق لما هو آت

أنا! مقبرة الرجال؟! ولدت لأموت على شرفات عينيك

أنا! التي رأت الرجال أصفار المليار؟! أراك الآن كل الرجال، وكل الرجال بعدك سواء

ويعود التاريخ، وهذه المرة ينتصر شهريار

سأمزق جواز السفر

وأفتح بابي للنهار

سأغيّر ألوان جدران أحلامي

سأغيّر تاريخ أيامي

سأغيّر وجهة القطار

سأغير اسمي وطعم قهوتي

وسأترك أهلي، وأرضي، ودفاتري القديمة، وأحلامي المعلقة على أسوار المدينة

وأتبعك..

"ولا شأن لي بمصيري ما دام قربك

لأني ولدت كي أحبك"

قاطعني سائلاً:

-وما المطلوب مني يا«بريدا»؟

صديقي فيلسوف لكنه يتحلى ببعض الغرور.

كنت معجبة به جدًّا، وأخبرته بذلك، ولأنه راقٍ بما فيه الكفاية، فلم يحمل كلامي فوق ما يحتمل، فلا هو ظنني عاشقة له، ولا خطر له أنني قد أكون أغازله.

لكنه علمني الكثير، أكثر ما يحضرني الآن أنه اخترق أعماق قلبي ليخبرني بما لم أكن أعرفه عن نفسي، يسهل عليَّ الوقوع في حالة حُب لأنني أحب من الحُب البدايات فقط، ولأنني أحمل روحًا متمردة لا تطيق الرجل الشرقي، وترى فيه قيدًا وشيكًا.

لذا أخبرني أنني سيكون صعبًا جدًّا وقوعي في الحب حقًا. أدركت

من كلامه أن قلبي مقبرة للرجال.

منذ سنتين وبعد غياب طويل، أهداني مقترحًا بقراءة رواية لـ "باولو كويلو" -لا أعرف كيف أدرك إعجابي بالكاتب- قال لي في رسالته التي لم أرد عليها أبدًا، بحكم لا مبالاتي بشكر من يقدم لي مقترحًا لا أتسرع في الحكم عليه.

أخبرني أنني سأحب رواية "بريدا" -أسطورة البحث عن الحُبِّ والحرية-

قرأت الرواية، فكان منّي أن شكرته برسالة، إلا أنه كعادته كان أستاذي الذي يظهر فجأة ويغيب فجأة.

قرأت الرواية، وبتّ مؤرّقة بشغف الأسئلة حول الحب والحرية، طال بحثي، ولكن الدرس الذي تعلمته خلال البحث: أن الحب يأتي بلا موعد، في الوقت الذي لا نتوقعه، وبالطريقة التي لا نظنها، بل وبسرعة نكاد ننكرها ثم نتقبلها بتوجُّس.

هل يمكن أن أنعتق يومًا بحُبٍّ حقيقي يستغرق كل حواسي مثل بريدا؟

هل سأحظى يومًا برجلٍ لو هجرني أبالي، بل ولا أندم على لحظاتي معه ولا أراها مضيعة للوقت؟

هل هناك رجل أتقبل كل هداياه ولو كان بعضها وجعًا؟

هل هناك رجل أشفق على النساء لأنهن لم يتعلمن الحُبَّ على يديه، ومن عينيه لم يتعلمن كيف يكون الغزل؟

هل هناك رجل أرى كل الرجال بعده سواء؟

هل من رجلٍ إذا أوجعني أو أغضبني، لا أنتظر منه سوى إشارة لأهرع إليه بلا انتظار لمبررات؟

كنت أشعر بدهشة، وأنا قليلاً ما تعتريني لذة الدهشة حتى لو كانت مفاجأة سيئة أستلذ بها لمجرد أن أحدهم استطاع أن يدهشني.

لكن أحدا لم يفعل! اثنان فقط تمكنا من تغليف روحي بغلالة لذيذة من دهشة حالمة:

أنا: لأنني كنت أتسمع إيقاع نبضات قلبي على أنغام روحه وصوته وحروفه.

وهو: لأنه استطاع أن يكون مختلفًا لهذا الحد، كاملا لهذا الحد، راقيًا قلبًا وفكرًا وروحًا لهذا الحد، أدهشني لأنه استطاع أن يتفوق على خيالي!

أخبرت صديقي الفيلسوف المشرد في أوروبا، سألني سؤالاً واحدًا: ماذا تتوقعين مستقبلا؟

قلت له: لا شيء! أفكر فقط في أنني أحبه ولا أبالي ما سيكون بعد ذلك.

قال لي: بريدا، لقد وقعتِ في الحب!

لا انتظر تقييمك صديقي الطيب لأعرف خريطة روحي، ولأدرك إيقاع قلبي.. لكنني أحببت أن أبوح. المطلوب أن تنصحني، كيف أتمكن من إدراك حقيقة مشاعره، وألا أنخدع بأقنعة الفيسبوك الوهمية؟

انقطع الإرسال من طرفه، فلعنتْ النت والحظ السيء ومعرفتها التامة بأنه يتركها تتحدث حتى يعتصر كل ما في جعبتها ثم يذهب ويرسل لها آراءه كما شُح الحكومات لشعوبهم. هي متسرعة حينما تكون الأفكار المتلاحقة تراودها، فلا تتركها ترتاح ولا تسمح لغيرها أن يلتقط أنفاسه أو أن يفلسف أو يرتب أفكاره. عليها تغيير استراتيجيتها تلك.

- ٢ -

- إنه أعلى من راتبكِ هنا، كما أنك ستتمتعين بكافة حقوق التأمين والتقاعد، ويمكنك إن اجتهدت أن تحصلي على منصب أعلى.

حاولت أنيتا أن تبدو مترددة في قبول العرض، رغم ما بدا عليها من حماسة وانفعال.

- سيد «جاك»، ولكن يبقى أمر، أنا لا أعرف كيف أقوم بذلك العمل.

- لا تقلقي ستحصلين على دورة ممتازة في كل متطلبات العمل، وسيكون لكِ مدير مراقب يوجهك.

- هل أستطيع ترشيح أشخاص آخرين معي ضمن العمل؟ أعني كيف يمكن لأخرى أن تلتحق بالوظيفة؟

- لننظر في أمرك أولا، ثم نرى.

ردّ بقسوة ثم التفت بلا مبالاة، ولكن عيناه تسمرتا عند رؤية فتاة تجالس أحدهم، لم يكن قد شاهد جمالاً أنيقا لهذا الحد، بأنف روسي مرتفع كهذا من قبل. كان الجمال الروسي يجذبه، لعله ملّ من الجمال الأمريكي الذي تشبع به منذ طفولته التي قضاها في أمريكا.

تبعته أنيتا بعينيها لتعرف سر انجذابه.

"هذه صديقتي راشيل"

قالتها أنيتا.

ردَّ بشرود:

- إنها مذهلة.

- نعم، لكنها غبية وكسولة بعض الشيء.

التفت إليها وحدق في عينيها بصمت.

شعرت بحيرة، وارتباك من حدة نظرته الثابتة.

- هل يمكنني الانسحاب الآن؟

هز رأسه وأشار بيده في إشارة موافقة.

- احضري على هذا العنوان يوم الأربعاء في الساعة العاشرة صباحًا.

أخرج من جيبه بطاقة، بلا اسم، فقط عنوان، وكتب عليها الموعد وتوقيع غامض.

ألقى نظرة أخيرة على راشيل، ثم قال وهو يستعد للنهوض:

- لا تقلقي، لقد رتبت الأمور مع مديركِ الحالي فيما يتعلق بالأجر، رغم أنك لم تمنحيني ولا قُبلة واحدة، وغمز بعينه.

ابتسمت، وهي تنظر في البطاقة.

نظرت إليه، كمن ينظر إلى كنز وقع عليه، كانت معرفتها به منذ بداياتها موفقة، فهو شاب لطيف، سخي، غير ثرثار ولا متطلب.

أول خدمة قدمتها له، كانت إثر احتفالية صاخبة له، لم تعرف سبب الترقية ولا طبيعة عمله وقتها، لكن بدا سعيدًا جدًّا لدرجة أنه قدم لها إكرامية تعادل راتبها مقابل ليلة واحدة.

كانت ملامحه الأوروبية، وشعره الأشقر الناعم يجذبانها بشدة، لطالما حلمت برجل على غرار أبطال الأفلام الهوليودية.

إسرائيل بلد كل شيء! بلد التناقضات الجميلة، قالت لنفسها: فتاة روسية وشاب أمريكي ودين واحد!

كان جاك يقود سيارته وملامح راشيل لا تفارقه، حتى وصل إلى بيته في "بات يام" قبيل الفجر، غدا عطلة رأس السنة العبرية "التي تعتمد التقويم القمري"، لا بأس من بعض الأرق. لم يتناول حبة المنوم ليلتها، أراد أن يظل مستيقظا يراقب تلك المشاعر والأفكار الحاضرة بقوة.

رغم حياته الرغدة في أمريكا، لكنه فضَّل القدوم إلى البلاد.كان مؤمنا حقيقيًا ومخلصًا لدولة إسرائيل.

اجتهد منذ مجيئه للبلاد كثيرًا، أتقن اللغتين العبرية والعربية وبرع فيهما، والتحق بالخدمة العسكرية حتى صار قنَّاصًا بارعا، وظهرت براعته هناك في حرب غزة. يتذكر كيف كان يراهن مع أصدقائه على اصطياد أكبر عدد من الرؤوس العابرة، كان دومًا يكسب الرهان، ويستمتع بذلك بشدة، مع كل رأس يسقط كان يرتفع نجمه، حتى صار مسؤولا في وحدة الاغتيالات.

كان رجلاً عسكريًا منظمًا قبل كل شيء، وترقيته في سلك

المخابرات، لم تكن عبثًا، كان منظّمًا جدًّا ذا عقلية مهووسة بالتحليل.

دخل شقته، أنار المصابيح، كانت غرفة الجلوس أول شيء يواجهه، غرق في الأريكة ذات الثلاثة مقاعد، على الطراز الأمريكي، بألوانها الزاهية، فتح التلفاز، ثم قام لصنع القهوة.

تمطى، ومد رجليه على الطاولة المربعة أمامه.

مدَّ ساعديه على جانبي الأريكة، ونفخ صدره، في رضا واضح عن النفس.

عادت راشيل تطل على خياله.. لم تكن ملامحها واضحة في ذهنه، مما سبب له انزعاجًا مؤقتًا.

ضيَّق عينيه.. حسنا قريبًا سأحفظ ملامحها جيّدًا.

كان يفكر جديا في التقرب منها.

***

سرحت الكاتبة بعيدًا في طبيعة الشخصيات المرسومة على الفيسبوك.. هل هي حقيقتنا التي نحاول أن نخفيها عن مجتمع يتربص بنا؟ وهذا الكم من الملحدين؟ أليس دليلا على أن المجتمع يعاني من أزمة ثقة حقيقية؟ ويتعرض لأزمة أمان عقائدي كبيرة؟ هذا الكم الهائل من العاشقين الواقفين على أطلال حسابات الآخرين؟ المتباكين في

كل مناسبة على حُبٍّ فشل، أو محبوب حالت دونه حجب وأستار؟ هل هذا الفيسبوك يظهر وجوهنا الحقيقية التي نخاف أن نبديها في محافل التجمعات العائلية؟

أم أن الفيسبوك وسيلة لرسم الصورة المثالية التي نطمح أن نكونها ونعجز بسبب التربية أو الظروف الوصول لها؟ هذا الكم الهائل من الحسابات الوهمية والأفكار؟ هل حسابات الآخرين ما هي إلا أقنعة زائفة جميلة لوهم كبير نرسمه لنقنع أنفسنا أننا بخير وأننا مثاليون؟

تذكرت ذلك الشاب الذي طالما اقتنعت من كلامه ومنشوراته أنه خير رجل عرفته، وأنه مختلف عن الآخرين وأنه مثلها يحمل فكرًا مغايرًا راقيًا، إلى أن جاء الوقت الذي أدركت فيه حقيقته، فهو ليس أكثر من شاب لا يستطيع الفكاك من تربية جائرة ألمَّت به، ويدرك في أعماقه أنه ليس أكثر من نسخة لأبيه الذي لا يحبه ولا يحب نهجه في الحياة، أدركت أنه حينما حدثها بحبه لها وكشف كل أوراقه لها لم يكن إلا كاذبًا يخدع نفسه قبل أن يخدع الآخرين.

كل منشور كان يكتبه لينتقد فيه المجتمع، لم يكن إلا نقدًا للذات المعذَّبة التي لا تستطيع الفكاك من حقيقتها المخيفة. كانت ورقة واحدة حاول أن يخفيها عنها، تلك الفتاة التي يحبها جدًّا، أو لعله يفرغ فيها

عاطفته المتأججة للحُبِّ، ولم يجد بديلاً أنسب، خاصة أنه يراها كل يوم في مكان عمله، أدركت أخيرًا أن تلك الفتاة بمثابة عشيقة يفرغ فيها عواطفه، فكيف يحب اثنتين معًا؟

ثم كيف لمن يتحدث عن إيمانه العميق بحرية المرأة ويهاجم بشدة الإسلاميين أن يتحول إلى وحشٍ شرس يضرب ويعذب أبشع تعذيب من يحبه؟ كانت تستجدي منه الحوار استجداء، كان يستمتع بأن تدلله كلتاهما معًا، وهو لا يأبه بأي منهما، كانت قائمة الانتظار من المعجبات عنده طويلة، والبدائل متوافرة. كان بلطجيا في أوقات الغضب المصرية يتحول إلى يد من حديد تكسر وتهدد بحرق المقرات، كان رجل التناقضات الكاملة.

كان ينتظر أن تنجز وعدا برؤيته ليقرر أيهما أنسب له. لم تحتمل أن تكون مجرد اختيار، فتواصلت مع تلك الفتاة المسكينة والغيورة والحقودة، وأخبرتها بما يحاول أن يخفيه عن كلتيهما، فالريح قد خطفتها من تلك العلاقة، نصحته أن يتجه لشواطئ أخرى ويبحث عن وطن جديد، فالريح قد ألقت بها بعيدًا عن موانئه الصخرية الحادة.

تبسمت بعدما استطاعت أن تنهي العلاقة بأقل الخسائر.

- ٣ -

في تلك الغرفة، اختلت «آنا» بنفسها، بعد يوم عمل شاق، لتجلس أمام جهاز الكمبيوتر، وظهرها للحائط، وعلى يمينها شرفة تطل من الطابق الثاني. أزاحت الستائر لتستمتع بالضوء المتسرب لحظة الغروب، الممتزج مع أضواء الشارع التي أضيئت للتو، منعكسة على السجادة الصغيرة. تركت الجهاز وسرحت في هذا المشهد المريح، كانت تحب أن ترسم نقش السجاد بعينيها، وتعد كل تدرجات الألوان، ثم تنسى ذلك سريعًا لتسمح لنفسها بتكرار العد في مرة قادمة مع متعة المفاجأة بالرقم الناتج. كانت تقنع نفسها أن في الأمر فائدة، على الأقل تتعلم دقة الملاحظة، وفي تلك اللحظات حينما ميز الضوء المنبعث ثلثي السجادة عن بقيّتها شعرت بالمفارقة الجميلة، وبأهمية الضوء.

بدأت رحلتها مع النور والظلام حينما كانت صغيرة، هجم لص مرَّة على البيت، ولسوء حظها وقتها، أو لحسن حظها مستقبلا تسلل إلى البيت من نافذتها. كانت تراقب النجوم فرحة بالتلسكوب الذي أحضره والدها في عيد ميلادها السابع، لم تشأ ترك المراقبة، ولكن النعاس حط على جفنها كفراشة، فأوكلت المراقبة لعينها الثالثة "التلسكوب".

تعثر اللص بصديقها الأثير الجديد "التلسكوب"، قامت فزعة،

حاول كتم صوتها لكن الصرخة الحادة نبهت أهلها. ظنوها غافلتهم وقامت للمراقبة ورأت ما يخيفها، هرعا معًا، كانا يناديان لعلّ صوتهما يهدئها من بعيد، لم يخطر لهما شيءآخر.. ارتبك اللص، وهرب سريعًا، حين أخبرتهما بالأمر، اتصل والدها بالشرطة وحاولت أمها تهدئتها، لكن مجيء الشرطة وأسئلتهم لم يزيدوها إلا ارتباكًا، فأصبح مزاجها كالماء العكر.

بعدما هدأ البيت، جلست أمها بجانبها، والمصابيح كلها مضاءة بناء على طلبها.. اقترحت عليها أمها القيام بلعبة، سنغلق أعيننا والمصابيح مضاءة، ونتخيل أمرًا ما، ونخبر بعضنا بما تخيلناه.

لم تصمد آنا إلا قليلاً.. شعرت بالرعب.. فتحت عينيها.. كانت أمها لا تزال مغمضة وتبتسم.. تأملتها آنا باستغراب.. فتحت الأم عينيها، قالت: لقد تخيلتُ غرفتكِ قد تحولت إلى بستان من الورود. انظري إلى تلك الشجرة الجميلة.

قالتها وهي تشير إلى شيء ما في الحجرة.

احتجت آنا ضاحكة: "أمي هذا مشجب الملابس!"

همست لها الأم : شغلي خيالكِ آنا، اغمضي عينيك وتخيلي، تذكري ما رأيته بالتلسكوب.

حاولت قليلا قليلا.. أغمضت عينيها.. رأت الغرفة تمتلئ بالكواكب.. أخبرت أمها، فحملت الأم المظلة.. انظري إلى هذا المذنَّب.

ضحكت آن.

قالت الأم: لنحاول إطفاء الأضواء، بدا القلق على آنا.

همست لها الأم :تشجعي!

فهزت رأسها موافقة.

أمسكت الأم يد آنا: انظري إلى ذلك الشيء، تحت الخزانة.

شعرت آنا بالرعب، تخيلت أقداما وإضاءة خفيفة.كانت دقات قلبها تزداد باطراد مع جموح خيالها. للحظة كادت تصرخ، التصقت بأمها.

أضاءت الأم الأنوار، اقتربت من آنا، بدأت تهدأ. قالت لها :آنا، إن الظلام وحده لا يخيف، إنه فقط انسحاب الضوء، الأشياء تظل كما هي، لا تختفي، ولا تتغير، فقط خيالك هو الذي يظهر.

- ولماذا رأيت تلك الأقدام؟ أين ذهبت؟

- ليس من أقدام.. حينما اختفت الحقائق، حاول الخيال خلق بدائل مخيفة. حبيبتي، تذكري كلامي هذا جيّدًا "الخيال أخطر بكثير من الواقع، لا تسمحي له بالسيطرة عليكِ، وهو ينمو حينما يحل

الظلام، افتحي عقلك جيّدًا إنه النور الذي يطرد الظلام ويزيل الخوف"

-هل الأشياء أجمل حينما نضيء الأنوار؟ سألت الأم.

- بالتأكيد!

- خطأ آنا. الأشياء الجميلة تظل كما هي حتى في الظلام. انظري إلى الرسوم على الحائط، ماذا يعجبك فيها؟

-حسنًا، أحب ألوانها، وأحب مممممم.. أنا أحب ملابس بيتر بان.

- حينما أطفأنا الأنوار، هل تغيرت ملابسه؟ أو تغيرت ملامح وجهه؟ أنتِ هل تتغيرين في الظلام؟

قالت بدهشة الاكتشاف كأنها فهمت:

-لا، أنا لا أتغير في الظلام. لقد فهمت الآن.

-النور جميل لأنه يظهر الجمال، لأنه يجعله واضحًا، كوني واضحة دائمًا آنا، سيظهر ذلك جمالك، واحذري أن تكوني كالليل خادعة أو مخدوعة.

-أمي، كيف أكون واضحة؟

-كوني صادقة مع نفسكِ، ولا تسمحي للخوف بأن يسيطر عليك.

لم تفهم آنا كثيرًا مما قيل وقتها، لكنها الآن وهي تتأمل السجادة

تفهم الحديث جيّدًا، في كل مرة تتذكره تكتشف حكمة جديدة يمكن أن تنفذها لتصبح أفضل.

سألت نفسها: هل الضوء يمنح الجمال؟ أم يكشفه فقط؟

قالت لنفسها: الجواب بديهي، لا بد لكل شيء من جمال داخلي أولا، ليظهر جليا في وقت مناسب. تحسست أنفها الطويل، لطالما سبَّب لها إزعاجا مؤقتا، بعد ملاحظة مضحكة ساخرة من أحد المقربين حول طوله، رغم تأكيدات أمها وهي صغيرة، أن طوله ليس بتلك الصورة التي تتخيلها، لكنها كثيرًا ما فكرت في جراحة تجميلية، تتراجع عنها سريعا، في اللحظة التي يمتدحها أحدهم بجمال روحها، أو بجمال عقلها.

كل يوم تزداد قناعة بأنها جميلة جدًّا، وبأنها ليست بحاجة لعمليات تجميل، كان تأملها للسجادة بشقيها المظلم والمنير، من اللحظات التي تزيدها إصرارا على طرد تلك الأوهام من رأسها.

أخذت نفسًا عميقًا، وفتحت حسابها في الفيسبوك، كانت بصدد نشر صور التقطتها اليوم في المؤتمر الذي انعقد في مدينتها "نيويورك"، حول حوار الأديان، بحضور مجموعة من الحاخامات المنتمين لجماعة "ناتوري كارتا" التي تؤيدها بشدة.

رفعت الصور تباعا، لحاخامات يصافحون بعض رجال الدين المسلمين والمسيحيين. اعترضتها صورة لها التقطها صديق عرضًا بكاميراتها وهي تتحدث مع مشارِكة في المؤتمر، تأملت الصورة طويلا، كانت الفتاة مسلمة محجبة من أصل أردني، لم تشعر خلال الحوار بشيء مفتعل، ولم تلحظ أن بينهما شيئًا من التحفظ، لكنها ابتسمت حينما تذكرت كيف كانت الأردنية تحاول طوال الوقت التأكيد بشكل غير مباشر على أنها تحترم كل الأديان، ولا مشكلة لها مع اليهودية كديانة. "لم تكن بحاجة لهذا التأكيد" قالت لنفسها ثم لم تملك إلا أن ضحكت: يا إلهي! إن محاولات نفي الشيء تؤدي في النهاية إلى استحضاره.

رفعت الصورة أخيرًا.

لاحظت كم التفاعل في الموقع، من عدة جنسيات وأديان، وبعدة لغات. لحسن حظها أنها تتكلم أكثر من لغتين، ولحسن حظها أن الفيسبوك يحتوي على خاصية الترجمة الفورية.

كانت تتابع التعليقات المنهالة باهتمام أحيانا، وترد على بعضها، وتكتفي بإشارة الإعجاب لغزل بعضهم واكتفائه بالتعليق على صورتها الشخصية. كان أغلب هؤلاء من العرب المولعين بكل ما هو غربي.

ذلك الشاب المصري أمطرها بوابل من الإعجاب، ثم أتبع ذلك بصور رمزية لقبلات ضاحكة بوجوه صفراء.

كانت تتخيل صوته وهو ينطق بكلماته تلك.

تعرَّفت عليه من خلال الموقع، ولحاجتها لإتقان اللهجة المصرية وافقت على إضافته لحسابها الشخصي، خاصة أنه يجيد اللغة الإنجليزية مما سيسهل التواصل بينهما.

- ٤ -

خرجت راشيل من الفندق، كانت أنيتا تنتظرها. كان الوقت قبيل منتصف الليل والشوارع هادئة، سمُحِ لراشيل بالخروج مبكرًا، كان هذا حالها حينما يحضر ذلك السادي السيادي.

حينما علمت بمجيئه اتصلت بأنيتا لتلاقيها أمام الفندق لتذهبا معًا لشراء بعض الملابس الجديدة اللازمة للعمل.

مشتا مسافة لا بأس بها بصمت.

- أنيتا، هل أنت سعيدة في عملك الجديد؟

- جدًّا راشيل، وكنت أريد أن أحدثك في هذا الشأن.

- ماذا؟ هل وجدت لي وظيفة معك؟

قالتها مازحة.

- كيف عرفتِ؟

- تتكلمين جادة؟

- نعم، لو رغبتِ.

- ما طبيعة العمل؟

- عمل حكومي، ووطني، وراتبه مجزٍ، خلال النهار. سيمكنك السهر ليلا والخروج للمرح والرقص، كما ستتخلصين من رجال يؤذونك ورائحتهم كريهة.

رمقتها راشيل طويلا، مجرد تذكيرها بذلك الرجل السادي السيادي يدفعها للقبول، كما أنها تعرفت بذلك الشاب الأمريكي وانتقلت لتعيش معه في شقته منذ أسبوع. كانت كثيرًا ما تشعر بقلق مفاجئ من أن يعرف طبيعة عملها فيهرب.. التقته صدفة عند الميكانيكي حيث ذهبت لتصلح سيارتها، كان لطيفا كفاية ودعاها لتناول فنجان قهوة، خلال انتظارهما لحين عودة صاحب الكراج، ثم التقته صدفة مرَّة أخرى في مقهى ترتاده. وبدأت اللقاءات تتوالى بحجة تعليمها اللغة العبرية، وبحجج أخرى، لا شك أن أنيتا ستجن لو عرفت أنها تعيش مع شاب لم تعرفه إلا منذ شهرين.

– حسنا أنيتا، أخبريني عن طبيعة العمل. أنا أرغب فعلا بتغيير مهنتي.

– نجلس في الحديقة في الشارع المقابل وأحدثكِ بالتفاصيل. لكن عليك أن تتقني اللغة العبرية والعربية كشرط أساسي.

– سنذهب قبلها لمحل الملابس الداخلية، وأنا فعلا بدأت بتعلم اللغة العبرية جيّدًا.

نظرت إليها أنيتا باستغراب: حقًّا؟ لم أتوقع هذا منك.

احمرَّ وجه راشيل: حسنا، هناك شاب ما، اسمه جاك، هو أمريكي، وأعتقد أنني بحاجة لإتقان اللغة لأتواصل معه. لقد كان لطيفًا جدًّا وشجعني. الحقيقة ...

ثم صمتت...

– الحقيقة ماذا؟

كانت أنيتا سارحة تفكر في أمر آخر.

– الحقيقة انتقلت للعيش في شقته!

– يا لكِ من فتاة محظوظة! أنتِ أذكى مما ظننت!

دخلتا محلا للملابس الداخلية، وانهالت عليها بالأسئلة لمعرفة التفاصيل.

- ٥ -

وضعَ يده بين دفتي المصعد، مما أتاح لتلك الشابة اللاهثة بالدخول. ابتسمت له شاكرة. ثم استدارت مواجهة الباب، أرادت ضغط زر الطابق الثالث، فلاحظت أن الإشارة مضيئة حيث ستصعد. كان في المصعد خمسة أشخاص وكان "هو" يقف خلفها مباشرة، شعر بخدران لذيذ وهو يغمض عينيه و يشم عطرها الهادئ يملأ أنفه. لم يعتَد بعد على رائحة العطور المنبعثة من الفتيات، بل لم يعتَد على وجود الفتيات في كل مكان، من حيث جاء-بلاد الرمال- كان الاختلاط غير مسموح والأنثى الوحيدة التي يخالطها هي أمه أو أخته، أو حين يتزوج، فزوجته.

فتح عينيه ببطء وابتسم، تأمل شعرها المنسدل على ظهرها، هي ليست قصيرة، لكنه طويل جدًّا.كان بنطالها الأخضر الضيق يمنحها من بعيد قوامًا طويلاً خادعًا، مع قميص أصفر باهت بخطوط خضراء رفيعة، ضيّق عند الخصر.

كانت كلاسيكية، بخلاف أغلب فتيات الجامعة الموشومات، بأزيائهن الغريبة، وشعورهن ذات الألوان غير التقليدية. مما جعله يظنها طالبة جديدة. حاول تخيلها بعد سنتين كيف ستبدو، فابتسم لما

رسمه في خياله.

تلمَّس خده لا شعوريا وهو يتأملها، منذ مدة طويلة، منذ أيام المراهقة لم يتلمس خده. كانت تلك عادة لا شعورية رافقته منذ ذلك الحادث، كلما نظر إلى فتاة تثير فضوله، وهن قليلات، أغلبهن يراهن على التلفاز فقط خلسة.

كان ابن تسع سنوات، حينما جاءت عمته لزيارتهم مع ابنتها الصغيرة، أراد أن يرى القلوب تدور حول رأسه في المرآة لو قبّل خد فتاة، كما فعل القط الشهير توم مع قطته في حلقة البارحة. فاقترب ليُقبِّل ابنة عمته، لكن بدلا من ذلك دارت عصافير دائخة حول رأسه، لم يرها لكنه شعر بقوة الصفعة من أخيه حينما رآه يفعل ذلك، على غفلة من الأم.

كانت تلك المرة الأخيرة التي يرى فيها فتاة بشكل مباشر سوى أمه وأخواته. تناقشت الأسرة وأقر بذنبه وحُكِم عليه بأنه صار كبيرًا كفاية ليعتزل مجتمع الفتيات كما هي العادة في بلاد الرمال.

في المصعد تحسس خده، متذكرا الصفعة ونسي أن يتحسس قلبه. ليته فعل!

توقف المصعد عند الطابق الثالث، خرجا معا، ابتسمت له ثانية، فبادلها الابتسامة، شاكرا جمال الصدفة. مشيا معًا باستغراب بالاتجاه

نفسه، هل أنت ذاهب/ ة؟

ضحكا معًا، حينما خرج السؤال منهما معًا. قالت إنها ذاهبة لزيارة بروفيسور «ديفيد بيلانسكي». يا للإبداع! قال لنفسه، وأنا ذاهب لرؤيته. عرّفها بنفسه لكنه لم يجرؤ على مد يده للمصافحة، لعلَّ تصرفه ذاك جعلها تكتفي بذكر اسمها الأول كتعريف بنفسها.

لم يطل بقاؤها في المكتب، تعّلم "هو" أن السيدات أولاً في أمريكا، في بلده ما كان ليكون ذلك، فهن أصلا غير موجودات.

أنهى ما يريده وخرج، تلفت حوله، كأول ردة فعل بعد خروجه، لا يعرف عمَّ كان يبحث، لو تحسس قلبه لعرف!

في المرة الثانية التي رآها فيها كان الوقت العاشرة صباحًا والجو منعش،.كانت تلبس بنطالا أبيض، وقميصًا خفيفًا فضفاضًا أكمامه واسعة، بمربعات زاهية من ألوان متعددة، تحته فانيلا بيضاء.مرآها جعله يبتسم، مظهرها انعكس في قلبه بياضًا ذكَّره بالملائكة في الرسوم المتحركة.

في تلك المرة أقبلت هي نحوه كأنها تبحث عنه، مدت يدها مصافحة، قالت بلا مقدمات: "هل ستحزم الكثير من الأغراض؟"

-عفوا لم أفهم!

– ستأتي لتعيش عندنا وأنا هنا لأساعدك، أخبرني أبي بذلك بعدما اتفق معك على ذلك. عرفت أنه أنت، أبي أخبرني بعدما خرجت من مكتبه يومها واتفق معك، دخلت بعدك مباشرة، أتذكُر؟ كما أنني عرفتك من لهجتك الأمريكية الرديئة، ثم ضحكت ببراءة.

كان لا يزال مندهشا وغير مستوعب للموقف.

شعرت بذلك، فأعقبت: والدي بروفيسور «ديفيد بيلانسكي»

فتح عينيه دهشة قائلاً: والدكِ؟ أوه! لم أكن أعرف.

للمرة الثالثة، شكر تلك الصدف اللطيفة. تلفت حوله كأنه يبحث عن ساحرة طيبة تدبر له ذلك. لم يعرف لمَ شعر بكل تلك السعادة، لو سأل قلبه لعرف!

- ٦ -

فتحت آنا جاد حسابها على الفيسبوك، عادة ما تبدأ بصندوق الرسائل.لفت اهتمامها رسالة من صديق مصري، يرسل معبّرا عن إعجابه الشديد بها. استغربت لأن ذلك الصديق اللاديني غارق– حسب ما صرح بنفسه لها – في حب فتاة رفض أهلها زواجه منها. لكنه الآن يرسل إعجابًا.

وذلك الآخر الذي فقد محبوبته، يرسل لها قائلاً: "إنها تشبه حُلما قديمًا، هي كضياء نجم بعيد"

تعرف أن تلك رواية روسية لألكسندر تشاكوفسكي، كانت قد قرأت الرواية بالعربية بصعوبة، فهمت قصده. عادت لتفتح الرسالة فوجدته كذلك لمد جسور المودة بينهما، وكأنه يتمثل محبوبته السابقة فيها. تعجبت، هل ستكون آنا المسكِّن الذي يتجرعه كل من فقد حبيبة؟ أم أن الحبيبة الفقيدة كذبة الرجال الذين يحبون العبث واستدرار الشفقة في سبيل التواصل الحر من كل قيد؟

كم من أقنعة سقطت أمام هذا القوام المثالي لممثلة أوروبية مغمورة ساحرة! كم من رجل دين يسب ويلعن كل يوم أنصار الصهاينة ويتهمها بأبشع التهم، يرسل لها على الخاص طالبًا ولو كلمة حلوة أو صورة عارية لهذا الجسد الشهي! كم من شاب عربي يدعي النضال وأنه صلاح الدين لهذا العصر وسيحرر الأقصى بقوة زنديه، وثبات عقيدته، ساح قناعه الشمعي أمام حرارة جسدها الملتهب ونظراتها الأخاذة!

وجدت آنا رسالة من فتاة يهودية، تطلب منها أن تحترم تاريخها ويهوديتها، وأن تعود إلى أرض الميعاد لتحظى بشرف ما بدأه الأجداد. تابعت صفحتها فوجدتها تتوجه للعرب بلغة عربية، تحاول بث الفتنة

فيما يتعلق بأحداث ثورة مصر، ونشر صور جنسية لها.

تلك اليهودية الناصحة، تزعم أن اسمها راشيل، تذكرت آنا الشهيدة راشيل كوري اليهودية الأمريكية التي سقطت تحت سطوة الجرافات الإسرائيلية في غزة وهي تحاول إيقافها عن هدم بيوت الفلسطينيين. أطلق أهل غزة اسمها على شارع تخليدًا لذكراها، لكن بعض المتعصبين ما زالوا يعدونها صهيونية نجسة، لأنها فقط يهودية، ويجدون أن دمها دليل على إن إسرائيل مستعدة لدفع أي ثمن مقابل تحسين صورة اليهودي للعالم.

لكن هذه اليهودية التي تدعو آنا للعودة لرشدها - كما ترى- والمسماة باسم راشيل تختلف عن هؤلاء، فتحت ألبوم صورها، ملامحها الجميلة، شعرها الأحمر وعيونها الخضراء، ذلك الأنف الروسي الجميل، هي من المهاجرين الروسيين إذن لو صدقت الصور!

قررت آنا أن تتواصل مع راشيل، أرسلت لها رسالة بالمقابل.

" عزيزتي راشيل، شكرًا لاهتمامكِ بي، ولكنني بخير، وسعيدة بما أفعله، وأحب ديني الذي هو دينك بكل حال، لكن طريقتي في فهمه تختلف عن طريقتك، كما أن أهدافي تختلف عن أهدافك على ما يبدو. أنتِ تريدين مني الرجوع إلى إسرائيل، فهل ترين أن ذلك حقًّا سيزيد

من قيمتي كإنسان؟ هل هويتي حقا ستبدو واضحة ومفهومة من خلال ذلك التراب؟ سأسألك سؤالاً واحدًا فقط: هل أنت سعيدة وراضية؟ هل هذا ما حلُمتِ به؟ "

- ٧ -

اقتربت راشيل عصرًا من العمارة حيث تسكن، على حذر، كان تجمهرا متوسطا، وصفيرًا وصيحات، لاحظت أن الفتاة التي تسكن في الشقة تحتها تبادل المتجمهرين الصراخ والشتيمة. لم تميز الكلمات، لكنها انتبهت إلى نبرة الصوت الغاضبة من قِبل الجميع، حاولت تجنبهم في طريقها لمدخل العمارة، لكن الحشود كانت موزعة في عدة أماكن، لدرجة أنها توجست خيفة من قدرتها على الوصول إلى شقتها، فأمام شقة تلك الفتاة المطلة من الشرفة، كان حشد آخر يتجادل بشدة، ويطرق بعنف على الباب الخشبي المغلق.

حاولت اختراق الحشود، لكنهم اعترضوا طريقها، كانوا يتدافعون ويتقاذفونها. وقعت منها بعض الأكياس، انحنت لتلملم الأغراض المتساقطة، لكن الأقدام داستها، وتدحرج بعضها على السلم. انسحبت بسرعة نحو باب الشقة المقابلة، ألصقت ظهرها به، لكنه انفتح بهدوء، أطلت جارتها " شلوميت" العجوز، تأملت المشهد بهدوء، وبعين الخبير

أدركت أن راشيل في مأزق، دعتها بشبه ابتسامة إلى بيتها، فلبَّت راشيل الدعوة سريعًا. كانت فرصة ذهبية لتلك العجوز لتروي فضولها حول راشيل، لم تكن راشيل في وضع يسمح لها بالاعتذار ككل مرَّة، لم تتردد في قبول الدعوة، على الأقل لتحافظ على بقية الأكياس من الضياع.

جلستا في غرفة الصالة المفتوحة على الشرفة المطلة على الشارع، كانت الأصوات لا تزال غاضبة وواضحة.

سألت راشيل بتوتر: ما الذي يجري؟

أشارت شلوميت بحركة بيديها لتهدئة راشيل: لا تقلقي يا عزيزتي، الأمور تحت السيطرة. طيش شباب فقط. سأحضر لكِ بعض النسكافيه ونتحدث.

ابتسمت بثقة، ثم مشت تتهادى ببطء نحو المطبخ القريب.

تبعتها راشيل بعينيها، إلى أن غابت، وبقي وقع أقدامها وقرقعة أدوات المطبخ تشي بحركاتها.

تفقدت راشيل سريعًا أكياسها لتحدد حجم الخسارة.. ليست بالشيء الكثير.

رفعت عينيها فوقع بصرها على" المينوراه " الشمعدان السباعي فوق خزانة خشبية أثرية، تحيط به الورود. كان نحاسيا تقليديا، كانت

قد تعلمت أنه مقدس، وله رمزية كبيرة، به كان يضاء هيكل سليمان، وبه سيضاء الهيكل حين يبنى مرَّة أخرى. أول مرة رأته كان على ورقة رسمية وحوله غصنا زيتون، عرفت أنه شعار الدولة، وتعلمت بعدها أن تفرق بينه وبين الشمعدان ذي الشمعات التسع، الذي يضاء في عيد الحانوكاه "الأنوار".

على الحائط لفت نظرها صورتان تعلوان الشمعدان عن يمين وشمال، لشابة في الزي العسكري، تقابلها صورة لشاب في زي مشابه. قامت من مقعدها، تتأمل صورة الشابة، هل هي شلوميت؟ ابتسمت، لا بد أنها هي لكنها كانت أكثر جمالا ورشاقة، شعرها على ما يبدو أسود فاحم، ليست متأكدة فالصورة بالأبيض والأسود. لكن تلك النظرة الصارمة والفم الصلب لم يتغيرا رغم السنين.

فاجأها صوت شلوميت، تقول لها: " أوه! كانت أيامًا رائعة يا راشيل، حين خدمت في جيش الهاغاناه أيام تأسيس الدولة. كنت لم أتجاوز التاسعة عشرة، لكنني شعرت أنني أصنع التاريخ "!

ابتسمت راشيل، وعادت لتجلس مكانها.

شربت بعضًا من كأسها، ولكن رائحة دخان كثيفة زكمت أنفها، نظرتا إلى بعضهما، ثم قامتا لإلقاء نظرة من الشرفة، كان الدخان ينبعث من

حاوية القمامة، والصفير والتصفيق يرافقه. لمحت علمًا فلسطينيًا يحترق.

سألت شلوميت عن الأمر، فوضعت شلوميت يدها على ظهر راشيل وقادتها للداخل، قائلة:

"لنغلق باب الشرفة، وإلا فالدخان سيحتل المكان"

تنهدت شلوميت حين جلست، ثم رفعت رأسها وقالت لراشيل، بما يشبه الغضب:

"بات يام" كانت دائمًا مكانًا هادئًا،ولم تعرف يومًا إلا المخلصين، لا أدري ما الذي أصاب "دبورا" أو كيف فكرت حين قررت رفع علَم ما يسمى بالعرب بجانب علم الدولة.

لقد حذرناها، أقصد حذرها«سالمون» صباحًا، ولم تستجب. أعتقد بعد هذه الحادثة ستضطر للرحيل من هنا. ثم نظرت إلى راشيل وهي ترفع كأسها إلى فمها: "ألا تتفقين معي؟ "

لم تستطع راشيل أن تقيم الموقف، لعلها لم تكن تملك الحماسة الكافية، فاكتفت بهز رأسها موافقة، ثم لملمت أغراضها على عجل، حينما شعرت بهدوء المكان خارجًا. كانت تريد الهرب قبل أن تبدأ تلك العجوز بأسئلتها الكثيرة.

***

فتحت الكاتبة صندوق الرسائل، وأرسلت تلك المادة من الرواية حول الفيسبوك والصديق الفيلسوف إلى رام الله. وذهبت للنوم بانتظار التقييم من صديق المقهى. كانت تمنّي نفسها بلقاءٍ قريب بعد أن يقرأ ما أنجزته.

أرسل يقول لها بعدما قرأ النص الذي أرسلته:

"سيدتي لن أجاملكِ فيما تكتبين، فالأمر لا يحتمل أن أقول للنرجس "يا أحمر الخدين!" لا أدري بداية كيف يجرؤ كثير من الناس على أن يتبجحوا بأنهم سينجزون رواية رائعة، حتى قبل أن تخط أياديهم سطرًا من روايتهم المزعومة. أنا أخاف أن أقول سأكتب رواية، وتتقاذفني الشكوك دومًا حول ماهية الرواية. كما أنني أعتقد أن الرواية رمال متحركة يغرق فيها من لا يجيد جغرافيا الحياة، وتاريخ النفوس. إن كتابة ألف قِصة أهون عليَّ من وضع عنوان لرواية فضلا عن كتابتها. كيف سأفض تشابك الأحداث؟ بل كيف سأربط خيوطها قبل فض بكارة علاقاتها؟ الرواية نثر، وليس أي نثر؛ إنه نثرٌ يستدعي مزيدًا من الكلام، وأنا أجيد الاختزال، وأكره الثرثرة، لذا أهرب للقصة القصيرة وللشعر.

ليتك تكونين أكثر حزمًا مع شخوص روايتك، وأكثر وضوحًا في رسم ملامح شخوصك. شخوصك أكثر ضبابية ولبسا للأقنعة من

صاحب الظل الطويل.فهل تتعمدين ذلك؟ أم أن انشغالك بضيوفك جعلك تنسين توضيح العلاقات بينهم كما يجب؟ لا يمكنني الحُكم مطلقًا على ما أرسلتِه لي، فهو ليس إلا مقدمة لعلاقات متشابكة، أذكر أنك قلت إن كثيرًا من اليهود في فلسطين سيظهرون وسيتحدثون عن تجربتهم الحياتية بعدما وصلوا أرض الميعاد، بين الخيبات والأمنيات. قلتِ إن اليهودي الإنسان موجود، ولن نظلم الإنسان اليهودي كما ظلمنا هو في رواياته.

وقلتِ كذلك، إنك تجهزين دراسة حول العلاقات الفيسبوكية.

لذا سأنتظر قليلاً أو كثيرًا، حتى يتم العمل، دعينا نسميه عملا، قبل أن نتسرع بإطلاق لقب رواية عليه. شخصيًا لا تهمني الألقاب، وأرجو ألا يزعجك ذلك في شيء.

نصيحتي الأخيرة هذه المرة لكِ: اكتبي طالما تشعرين أنك بحاجة للكتابة، ولا تكتبي ليقرأ الناس ما تكتبين. فأجود ما كتب كان رعشة قلب وطرقات مؤلمة بالأصابع لتفريغ تلك الأفكار المائجة، كما يفرغ العاشق رغبته المحمومة في محبوبته. اجعلي الورقة محبوبتك التي تفرغين فيها ما ترغبين.

"إني خيرتك فاختاري ما بين الموت على صدري أو فوق دفاتر

أشعاري"

ألا تشعرين بأن الكتابة تحتاج إلى مراسيم قبلها؟ كالعزف المنفرد على أوتار القلب؟

أنا أدعوكِ إلى ممارسة طهر الذات بالكلمات.

اكتبي، فالكتابة ممارسة للحُب على صفحات الورق، دعوة سرية لعناق القلم، هجوم الحبر لتقبيل السطور.

ألا تستفزك ورقة بيضاء بعذريتها؟ ألا تسمعينها تدعوك لفضّ بكارتها؟

اعذريني واكتبي. الكلمات تحاصركِ، تخنقك، تخيفك، توجعك، تشهر في وجهك سيفًا. حاصريها أنت، طوقيها، أشهري في وجه الورقة قلمك واكتبي.

- ٨ -

خرجت راشيل مسرعة من مقر المخابرات العامة "الشاباك"، كانت أسئلة آنا تدور في رأسها، تحاول تجاهلها، كانت تلهث، وترتجف من الألم، "هل أنا حقًّا سعيدة؟هل حققت حُلمي؟" كانت تعتنق حقيبتها المليئة بالأوراق المهمة، ذهبت إلى بنك"هبوعليم"

مسرعة، واستلمت أول راتب لها. كانت تشعر في داخلها بأن هذه الأموال ليست جديرة بأن تنفقها على نفسها، فهي أموال مغمسة بعمل مخابراتي قذر، كان ضميرها يؤنبها، خوفًا من أن يعرف جاك الحقيقة، لكن عملها في المخابرات كما أخبروها عمل وطني، ولا بد أن جاك وهو رجل في الجيش، سيغفر لها لو عرف الحقيقة. خاصة أن عملها لا يتجاوز ممارسة الجنس الإلكتروني، وأنه لا يتعلق بأبناء جنسها من اليهود. لقد أفتى لها الحاخام الأكبر بذلك.

لكنها ما زالت تشعر ببعض تأنيب الضمير.. الروس لا يأخذون الحقوق نفسها التي يأخذها القادمون من أوروبا، وعليَّ أن أعيش! هكذا كانت تعزّي نفسها من وقت لآخر والحياة تتقاذفها في أحضان الرجال، إلى أن تعرفت على جاك، فأحبها وانتشلها من ذلك العمل، ابتسمت لنفسها.

إن ما فعله جاك لها جعلها تقبل بوظيفة فتاة دعارة إلكترونية تتصيد الشباب العرب، مهمتها الأساسية هي تجنيد شباب من مصر وسوريا، خاصة من يعانون من أزمات اقتصادية أو يتلهفون على فتاة بيضاء غربية جميلة. كان جمالها فائقًا بحيث تستطيع أن توقع في حبائلها أي شاب. تلك الملامح الملائكية، جعلتها تتفوق على كثيرات في المنافسة التي

تقدمت لها وأقنعتها بها "أنيتا"، شريكتها السابقة في السكن.

وضعت النقود في حساب جاك، وانطلقت إلى البيت.

كان البيت باردًا عندما فتحته راشيل، فعرفت أن جاك لمّا يحضر. قذفت بحقيبتها على أول مقعد، وخلعت معطفها الجلدي الخمري، أشعلت التدفئة وتجرعت قليلاً من الفودكا لتدفئ جسدها البارد، وانطلقت إلى المطبخ لتعد الطعام قبل وصول جاك. لم تجد ما يمكنها تحضيره، أو بتوضيح أدق، هي غير ماهرة في الطبخ واعتمدت طوال عمرها على المعلبات الجاهزة، في روسيا لم تكن الحياة مرفهة، وكانت كثيرًا ما تكتفي بالخبز وبعض اللحوم المعلبة أو الخضار الطازجة. لقد وعدوها بحياة أخرى في إسرائيل، لكنها عندما وصلت إلى البلاد، وجدت أنهم قد أعدوا لها ولكل الروس القادمين معها بيوتًا متلاصقة من الصفيح، في كيبوتسات باردة صغيرة، ولم تجد وظيفة مناسبة لها، رغم أنها تحمل شهادة الماجستير في التمريض. كان الطريق شاقًا، وكان عليها تعلُم اللغة العبرية، لكنها كحال كل الروس، بقيت لهجتها الروسية القوية تلاحق لغتها العبرية أينما حلَّت.

كانت تلك اللهجة وتلك الملامح الروسية الجميلة كوصمة عار في دهاليز الدولة، وكأنها تدفع الحساب عن سياسة روسيا تجاه

إسرائيل ووقوفها إلى صف معسكر الشر الشرقي. هكذا فهمت من جاك لما حاولت أن تفهم السبب في حصوله كأمريكي على امتيازات لم تتمكن من نيلها رغم أنها يهودية عانت كثيرًا في المهجر.

كان دومًا يبتسم وهي تحتج على تلك التفرقة باعتبارها مواطنة من الدرجة الثالثة، قائلاً: يا عزيزتي، الأمر ليس تفرقة عنصرية، بقدر ما هو بدافع ديني، إنها قسمة الرب فهل تحتجين على قسمة الرب؟!

وفي كل مرة تسمع فيها هذا الجواب كانت في نفسها تلعن روسيا وإسرائيل والربّ معًا. لم تكن يهودية متدينة، حالها كحال كثير من الروس، كانت تريد فقط أن تعيش حياة كريمة كما صوروا لها البلاد على أنها جنة العسل.

فكرت الكاتبة في نفسها، تتساءل عن هويتها هي، كانت واثقة أنها منسجمة مع هويتها،

التفتت إلى الرواية وبدأت تكتب: "خرجت راشيل من المطبخ..."

لكنها توقفت وقد أصابها شعور مزعج كحرقة المعدة، لكنه كان هناك، حرقة في الدماغ، ذلك مؤشر على انشغال البال بفكرة بائتة لم تهضم تمامًا بعد. بدأت تستعيد شريط أفكارها، آه موضوع تعريف الهوية، ثم سالت الأفكار تباعًا، وضحكت بشدة، وهي تتخيل وجه صديقها

الفيلسوف أو مستشارها الأديب يلويان شفتيهما وهما يقرآن هذا الكلام السطحي في تعريفها للهوية حين حصرته في لغة وبضعة أوراق ثبوتية، يا إلهي، كيف فاتني كل ذلك؟ لا بد سيخيب أملهما كثيرًا فيها لو أنها توقفت في منتصف الطريق خلال بحثها عن ماهية الهوية الإنسانية.

كان لا بد من حضور الفيلسوف!

كتبت تقول له:

"راشيل تشعر بنوع من الضياع، هل المشكلة في الهوية؟ هل الهوية شعور بالانتماء؟ أم أن الانتماء يعمق شعورنا بهويتنا؟ هل يشترط في الهوية أن تتكون من عناصر متآلفة موحّدة كنسيج الثوب؟ ماذا لو تنوعت مشاربنا وتوسعت القاعدة التي ننتمي إليها؟

إنه موضوع فلسفي أو اجتماعي نفسي، ولكني آمل أن أجد تعريفًا يريحني. قرأت الكثير من التعريفات ولكني ما زلت قلقة، قالت الكاتبة لنفسها، كل واحد منها يسبب لي مزيدًا من الأسئلة والتضارب. الشيء الوحيد الثابت عندي هو أنها والوعي لا ينفكان. وأنها متغيرة غير ثابتة، وأن الشعور بضياع الهوية إنما هو بداية غير واعية لتغيُّر مسارها. فإما أن نتقبله أو أن نحاربه، إذن الهوية شيء إرادي في مراحل متقدمة من العمر والوعي، وهي قسرية في مراحل مبكرة.

الصدام الأكبر في الهوية هو صدام الهوية المجتمعية مع الهوية الفردية؛ فإما أن يعيش غريبًا أو أن يتكيف، وفكرتي عن التكيف أنه أسوأ شيء يمكن أن يحصل لهوية الإنسان. من قال أن التكيف ذكاء اجتماعي؟ من قال هذه العبارة المضللة؟ التكيف وسيلة لتحويل الفرد إلى رقم متسلسل في مجتمع ما، يرفض قوانينه.

لماذا نحن مجبرون على أن يتم وضع هوية لنا؟ لماذا هذه التقسيمات بين الوطنية والعرقية والسياسية؟ لماذا نحصر أنفسنا في شيء يجعلنا متمايزين عن الآخرين؟ برأيي الهوية سبب في الاستعلاء. كل صاحب هوية سيظن نفسه ممنوحا ميزة تفضله عن الآخر الذي لا يملك الهوية نفسها. الحقيقة أنا ضد فكرة الهوية والتصنيفات بهذه القوة. الهوية هي أنني إنسان أولاً ثم البقية تأتي. نحن بحاجة إلى هوية عامة توحدنا، ومن ثم علينا البحث عن الهويات الفردية التي تخلق التمايز، تمايز هدفه التنافس ثم التكاتف وليس التدافع ثم التناحر."

جاءها الرد من صديقها بعدما صدعت رأسه بأفكارها التي تنهمر كحبات الرصاص.

أرسل لها: " ابحثي عما قال درويش فسترتاحين!"

نظرت مدهوشة لبعض الوقت، شعرت بخجل مروع، درويش؟

كيف غفلت عنه؟ إنه ليس شاعرًا فقط، إنه فيلسوف شاعر وهو الأجدر بالتحدث عن الهوية، لأننا كفلسطينيين نعاني بدرجة لا تقل عن معاناة القادمين الجدد إلى أرض إسرائيل. كلانا تغيرت أرضه ولغته ومحيطه الاجتماعي. هم جاءوا إلى هنا ونحن رحلنا إلى هناك.

لم تكلف نفسها عناء إحضار ديوانه من مكتبتها، هي تريد جوابًا سريعًا، وبطرقات محمومة على لوحة المفاتيح بدأت سلسلة من العناوين تظهر لها. وكانت تجيد البحث فعثرت بسرعة على جملة "الهوية هي ما نورِّث لا ما نرث" ثم وجدت رسالة ماجستير منشورة بعنوان"الهوية والوجود في شعر محمود درويش"

خلال قراءتها وجدت الكثير من الشواهد الشعرية حول الهوية، من ذلك التعريف الساذج:

"سجل أنا عربي"، إلى أبيات محملة بالتصعيد والتكثيف في التعريف.

قبل أن تكمل لاحظت أن رسالة منه تظهر من خلال الفيسبوك، فمنذ مدة قررا أن يغيرا طريقة تواصلهما، أصبح الفيسبوك مسرحًا لكل الأحداث. قطعت ما بدأته وقرأت رسالته:

"الهوية هي ما نورِث لا ما نرث، ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فساد المرآة التي يجب أن نكسرها كلما أعجبتنا الصورة. محمود درويش"

شعرت بتوتر الأسئلة، وإسقاطات الواقع، وضبابية الرؤية.

كتبت تقول له:

- محمود درويش يتحدث عما يجب أن تكون عليه الهوية، لا ما هي قائمة عليه الآن. هناك إشكالية بين ما نريد أن نكونه، وما نحن عليه فعلا.

بقي صامتا، كأنْ لم يرق له الكلام.

قالت له مازحة لقتل هذا التوتر في داخلها:

- سأستقر في ألمانيا لأرتاح!

-ألمانيا للجرمان!

قال لها بحزم.

- وماذا لنا؟

-الكمنجات!

سرحت بعيدًا في كلامه.. بدأت بلا وعي منها تدندن أغنية أميمة خليل:

الكمنجات تبكي مع الغجر الذاهبين... إلى الأندلس

الكمنجات تبكي على العرب الخارجين... من الأندلس

الكمنجات تبكي على زمنٍ ضائعٍ... لا يعود

الكمنجات تبكي على وطنٍ ضائعٍ... قد يعود

***

لم تعتد الكاتبة على إنشاء مسودات لأي عمل تكتبه، حتى في دراستها الجامعية وأبحاثها، كانت تجود بأفضل ما لديها على الورقة الرسمية مباشرة، كل ما تحتاجه هو تقليب الفكرة في رأسها، وفي اللحظة التي تشعر فيها ببدء انسياب الأفكار أو المشاعر تكتب، كانت تعتمد على تكاثف القدرة التعبيرية مع اختمار الفكرة بعد أن تحفظها في اللاوعي، ثم بعدما تنهي تجلس لتتأمل ما كتبته. أحيانًا تسخر من نفسها، وأحيانًا تنظر لما كتبته بإعجاب كنحات صنعَ تمثالاً أثناء مشيه وهو نائم. لكن في حديثها عن الهوية، لفرط ما أرّقها الموضوع كانت تحتاج إلى مساحة بيضاء إضافية تطرق عليها كل أفكارها المتدافعة. لم يعد كافيا أن تجلس في شرفتها وتتأمل ثم تستنتج وترتب، في زحمة الأفكار هذه لا بد من تفريغ تلك الشحنة التي تشبه صعقة كهرباء، ومن ثم قليل من الهدوء، لتشق طريقها ضمن الرواية. فتحت صفحة جديدة في مستندات جوجل وبدأت تكتب، حتى أفرغت كل ما لديها دفعة واحدة كموجة تسونامي، إما أن تغرق فيها أو أن تحتمي بالكتابة.

شعرت بإرهاق بعدما أفرغت ما في جعبتها "يا له من تعبير أثري! (تفرغ جعبتها)"، الموقف أقرب فهمًا إلى قولها، أفرغت الشحنات

الموجبة من عقلها، أو كأن عقلها غيمة مبرقة مرعدة أفرغت أمطارها للتو ثم هدأت العاصفة.

ذهبت لصنع فنجان قهوة، ثم جلست تتأمل وتحلل.

أما كان يجدر بي عدم التطرق لهذا الموضوع؟ وكأني CIA أحشر أنفي في روائح المواطن الخفية.

قد أؤجل موضوع الهوية لكتاب آخر.. لكنها تراجعت عن التراجع لأسباب كثيرة، لا داعي لذكرها هنا.

وقفت على الشرفة العالية، تتأمل الشجر والجبال الممتدة، ثم اصطدم بصرها بمنظر لم تستطع حتى الآن التعود عليه، ركام من الحديد، والمعدات الثقيلة تفترش الأرض، لا تتناسب مطلقًا مع المنطقة، أشبه بصعود مغني هيب هوب إلى مسرح تعزف فيه سمفونية لأندريه ريو.

أرسلت تسأل الفيلسوف سؤالها المكرر بإلحاح:

-لكن تعريف محمود درويش للهوية، يبين ما يجب أن يكون عليه الحال، لا ما هو كائن الآن! هل تعي راشيل كل ذلك؟

أجاب:

-لا أظن ذلك، رغم أنها اختارت بعضًا من هويتها حينما قبلت بالعودة لأرض إسرائيل، إلا أنها لا تبذل جهدًا للتغيير. إنها تخاف من التغيير، أو قوية كفاية لتحافظ على جزء من هويتها السابقة.

-ولكن يا عزيزي، لو كانت قوية كفاية فإن انسجامها الداخلي لا يتوتر. إنها الآن مثل كأس شاي ساخن على نافذة مفتوحة في الشتاء. إما أن تنكسر أو أن يعتريها الضباب.

رد:

-كفّي عن المراوغة! كلامكِ إسقاط نفسي يعكس ما تشعرين به.

- لم أفهم!

- أيتها الإسرائيلية...

- لست إسرائيلية، لكنني مواطنة صالحة في بلد راعية، تقدم لي خدماتها بشكل مثالي.

- راجعي نفسكِ!

صدمها كلامه، فبدأت تخضع نفسها للعبة المصارحة..

"هل أنا فلسطينية حقًّا" سألت نفسها؟ حين وُلِدت كانت جنسيتي أردنية، لأن الجنسية الفلسطينية لا تمنح لحملة هوية القدس، فهي

صادرة عن وزارة الداخلية الإسرائيلية، ثم مع مجيء السلطة أصبحت جنسيتها فلسطينية، ولكن جواز سفرها بقي أردنيا، وتحمل كذلك جواز سفر إسرائيلي مؤقت.

من هو الفلسطيني إذن؟ هل هو الحاصل على جواز سفر فلسطيني؟ أنا لا أحمله! هل الفلسطيني في مخيمات الشتات، فلسطيني بالوراثة؟ أم أن هناك أسباب أخرى تستدعي فلسطينيته؟

هي تكره إسرائيل الدولة وتعدها عدوًا سرق أرضها، واعتقل إخوانًا لها وجيرانًا، لكنها تحترم أولئك المواطنين الذين يبتسمون لها في الجامعة، بل ويقدمون لها النصيحة الخالصة لتكون أفضل. حتى شعورها تجاه إسرائيل مضطرب، يتراوح بين البغض أحيانًا والإعجاب الممزوج بالامتنان أحيانًا أخرى. لكنه في كل حال لا يخلو من الاحترام لأناس يعرفون كيف يصنعون دولة ويحققون هدفًا.

لكنها في الوقت نفسه لا تحب عروبتها. لم تكن تكرهها حينما كانت طالبة في المدرسة تنظر إليها بعين معلمة التاريخ، لكنها حينما خرجت من المكتبة، واصطدمت بأول رجل و أول امرأة في أول تمرد لها، تفتحت حواسها على خجل كبير. الدين ليس المعطِّل لكنها العقلية العربية التي تصر على نقل حياة الصحراء إلى ضفاف النيل،

وروابي القدس.

ثم بدأت تنبش خلايا الطبري، لتفزع بأن تاريخ العرب أشبه بدورة حياة، لكنه في المرة السابقة كان نتيجة تزاوج بالحلال، إلا أنه اليوم ابن حرام!

لا جديد! أبو جهل يعود في ملابسه نفسها!! ولحيته نفسها!! ولغته نفسها، مع فارق: كل شيء يعلوه الغبار، كأننا في متحف للآثار. نحن نستحضر أرواح أهل الصحراء لنسألهم: هل كلام الفتاة مع الشاب على الفيسبوك خُلوة؟ ليفتح ذاك العربي المسلم فمه مشدوهًا! سنحتاج إلى مائة عام كي نشرح له عن تطور وسائل الاتصال، لنستقي منه فتوى. نكرر السؤال: هل يحق للمرأة السفر بلا محرم؟

ورده البديهي "كيف ستركب الناقة وحدها؟ ألا تخافين عليها؟"

أية ناقة يا سيدي! ستركب الطيارة، وأقصى مكان ستبلغه لن يحتاج لثلاثة أيام! ولا ثلثها!

وكيف ذلك؟يجيبني متعجّبًا!

فأرد وقد بدأت أشعر بنشوة لجهله البدائي بطبيعة حياتنا: يا سيدي هناك اختراع اسمه الطائرة! ولا تخاف فيه المرأة على نفسها فتنة ولا ضياعًا! إنها أشبه ببعير ذي جناحين!

يتلجم ويبلع ريقه! ثم يرواغ.

-لا، هذا محال! عليها التقيد بالنص! مسيرة ثلاثة أيام تعني ما يعادل ٨١ كم! سواء بطائرة أو بغيرها..

هزَّت رأسها وتنهدت ثم ابتسمت: أعرف ما ستقوله ولي سؤال: ٨١ كم، لماذا هذا الرقم؟

- لأنه.. لأنه.. لأنه هو المسافة التي تستغرقها امرأة على هودج لتصل لأي مكان بعد ثلاثة أيام!

- ولو لم تكن على هودج؟ لنبحث عن مكان تحتاج إلى الوصول إليه في ثلاثة أيام في طائرة، ثم نحدد المسافة!

وتشرح له مدى سرعة الطائرة!

ثم تعقب: إذن لا يحق للمرأة السفر إلى القمر بلا محرم!! لقد ركزت على المسير ونسيت الأيام الثلاثة! لقد ركزت على البعير ونسيت أن الإسلام كي يصلح لكل زمان ومكان فعليه أن يكون ابن الواقع.

تركته يتبخر بنار غيظه-في مخيلتها- وانتقلت لواقعها، نفثت أنفاسها لتذرو رماده، ولتخرج تلك الفيروسات الفكرية الضارة قبل أن تضرب القرص الصلب في رأسها.

عادت لروايتها.. راشيل!! على راشيل أن تحدد ما تريد أن تراه في مرآة حياتها، وما تريد أن تطرده. عليها أن تفعل ذلك وحدها وبقوة!

- ٩ -

خرجت راشيل من المطبخ، طلبت بيتزا، وبانتظار جاك.. فتحت التلفاز تراقب الأخبار، كانت متعلقة بأمل يحسِّن أوضاع الروس المعيشية في إسرائيل. هذه المرة ستدلي بصوتها في الانتخابات، فقد سمعت أن صعود "أفيغدور ليبرمان" لمنصب مهم في الحكومة سيساهم في تحسين أحوال الروس، إنه روسي صلب وسياسي قوي، والروس كتلة انتخابية كبيرة لا يستهان بها، فلو أنها فعلت كما أقنعها صديق روسي بأن تشارك في الانتخابات فإن ذلك سيعود بالنفع عليها.

بدأت راشيل تشعر بالقلق، وقد مضى الوقت ولم يحضر جاك منذ ثورة مصر، كانت تشعر بقلق من قيام ضربة على غزة يشارك فيها.

مرَّ وقتٌ قبل أن يفتح الباب، فهرعت إليه، تبسم لما رأى لهفتها عليه، أعطاها جسده لتحتضنه، ويداه ما زالتا تحتضنان حقيبته، ناولته شفتيها فقبلهما بسرور، بدأ بخلع سلاحه، وجلس يستريح.

أشار بيده إلى الطاولة في استياء" بيتزا!"

قالت بخجل: لم أعرف ماذا أفعل.

قام بهمة وتناول يدها إلى المطبخ، أخرج بعض الخضار وقطعتي لحم، طلب منها أن تقطع الخضار ريثما يغير ملابسه. قال لها: سأعد لكِ طعامًا شهيًّا، وستتعلمين سهولة. لا بد أن تتعلمي. قبّل خدها ثم خرج من المطبخ.

لم يكن عشاء رومانسيًا، فضل جاك وراشيل تناول طعامهما أمام التلفاز. نقلا صحن الخضار الكبير إلى الطاولة الصغيرة أمام التلفاز، وحمل كلٌّ منهما طبق اللحم المقلي مع شوكتين وسكين.

سألته: لم سكين واحدة فقط؟

ابتسم وقال: الآن ستعرفين.

أخذ صحنها وقطع اللحم إلى قطع صغيرة ثم ناولها إياه، وفعل كذلك بقطعته.

كانت راشيل مستمتعة بطبقها لدرجة لم تلاحظ شرود جاك، إلا بعدما سألته إن كان يتوقع أن تقوم حرب في غزة ويتم استدعاؤه، لمست كتفه وكررت السؤال: جاك هل سيستدعونك للحرب؟ هل أنت قلِق من هذا؟

انتبه لها، فقال:

-لا تخافي يا حبيبتي، لن يفعلوا، فقد قبلوا منحي إجازة للسفر إلى أمريكا بعد أسبوع. شعرت راشيل بالفزع، عدلت جلستها وسألته:

-ستسافر؟ وحدك؟

نظر لها باستهجان:

-هل تريدين المجيء معي؟ راشيل، سفري ليس للمتعة، ولا داعي لقلقكِ.

- إذن ما الأمر يا جاك؟

تنفس عميقًا، وقال:

-أنا قلِق على أختي، لقد أرسلت أمي تطلب حضوري، إنها قلقة جدًّا على أختي.

- أما زالت ترفض القدوم إلى هنا؟

- ليس هذا فقط، بل إنها تعرفت على شاب عربي، وتقول إنهما متحابان. أمي تصر على ذهابي لعلّني أتمكن من فعل شيء.

- كم مدة إجازتك؟

- لن تطول، سأغيب أسبوعين فقط.

فكرت راشيل بارتياح: لن يعرف شيئًا عن المال الذي وضعته في حسابه

قبل عودته. ستكون فترة جيدة لأجد طريقة أغطي فيها عملي الأصلي.

-متى ستسافر؟

-بعد يومين.

ابتسم لها وهو يشم شعرها: سأشتاق لرائحتكِ الزكية. أعدك قريبًا سآخذك إلى أمريكا لنزور أهلي معًا.

استجابت لمداعبته، وقد خطر لها سؤال فجأة: ما هو وطني؟ هل سيقبلني أهله كيهودية أم كروسية؟ أزعجتها فكرة أن جاك أمريكي، لكنها أزاحت الفكرة سريعًا، حينما جذبها من يدها برقة إلى غرفة النوم.

- ١٠ -

كانت أغراض "هو" كثيرة، استغرق ذلك وقتًا. كانا منهكين. اقترحت عليه الذهاب إلى مقصف الجامعة لتناول الطعام. وافق على الاقتراح. طلبا صفيحة بيتزا كبيرة. جلسا على مقعد خشبي تحت الأشجار. تبادلا الكثير من الكلام، كان أغلبه حول طبيعة الحياة في بيتها، وقوانين أمها التي يُمنع خرقها، كمنع ترك بقايا شعر اللحية في المغسلة، ومنع تحريك المناشف من مكانها، أو رفع صوت التلفاز أو المذياع، قال ممازحا :"بروفيسور ديفيد بيلانسكي رجل صبور، ليحتمل قوانين أمكِ" ابتسمت ولم ترد.

كان الوقت عصرًا، ومع ميلان الشمس، بدأت أشعة النور تتخلل الأغصان الوافرة، تلاعب عينيهما، تكر مرة وتفر أخرى. كان الجو هادئًا، فآثرت أن تغمض عينيها في حيلة للتخلص من مداعبة الشمس المتكررة.

كان يكلمها.. نظر إليها كان رأسها مائلاً نحوه.. تأمل وجهها.. شعرَ بحنانٍ كبير نحوها.. ولّد لديه نوعًا من المسؤولية تجاه الموقف، فاقترب منها، متيحا لها بأن تريح رأسها على كتفه، كنوع من الشهامة العربية، هكذا أراح ضميره كلما أنّبه بقربه الشديد منها.

بقيا على تلك الحال ما يقارب الربع ساعة، والله وحده يعلم بما شعر به. كل ما أستطاع إدراكه أنه يشعر بسكينة كبيرة لم يشعر بها من قبل، لم يكن خبيرًا ليدرك الحقائق الراكدة في الأعماق، كل ما شعر به، أعراض قد تتنوع أسبابها.

***

"عزيزي الفيلسوف... "

هكذا كانت تبدأ كل رسائلها له، وهو يرد دومًا بكلمة سيدتي. كلاهما يعرف كيف يخاطب صاحبه. هي تحب أن يعاملها بتقدير وبوقار سيدات المجتمع، بعيدًا عن التعبيرات الموحية بالحب والإعجاب، وهو يحب أن تعامله بمودة الأصدقاء التي يحتاجها في

غربته. كثيرًا ما أخبرها أنه مشرد في أوروبا.

كتبت له:

في هذا المساء الربيعي الدافئ أرسل لك تحيَّة، تشعر بها لو سمعت موسيقى "Yanni"

كلما سمعت موسيقاه شعرت أنني قطر الندى يبلل زهر البنفسج، أو كأنني نسمة هواء تلاعب شراع سفينة متجهة إلى الوطن.

مع أنغامه أُصبِح وتر الناي، وأرى ضوء بيت يتراقص من بعيد يناديني لخيال فرحة الأولاد في ليالي الأعياد. أنا رحيق أقحوانة يملأ الأرض شذى وربيعًا، أنا نخلة في حيفا تنحني بظلها على ريحانة في القدس، والموسيقى تجري في دمي، تملؤني نشوة لتطير روحي معانقة الوجود، لتقدس هذه الحياة، تلك الموسيقى تملأ قلبي حُبًّا لأن أكون يومًا كما أريد، تستدعي ذاتي حكمة الأجداد، وأسرار الميلاد.

تلك الموسيقى، تشعل الرأس خمرًا.. إنها هاروت ينفث سحرًا.

الموسيقى لغة عالمية، تُرجمانها الروح. ولا أدري، لعلَّ وتر القلب يعزفها؟ أم لعلَّها تُحيله نارًا ترقص حوله بنشوة الدماء.

عزيزي،

يقول الشاعر: كن جميلاً ترَ الوجود جميلاً. لكنني في لحظات الألم الكبرى، والأوجاع الصغرى، أهرب إلى الموسيقى لأستشعر بعض التوازن والبهجة. إنني مهما ألقي الحزن في أعماقي مرساته، تنتشل الموسيقى روحي من بئر الظلمات المعطلة إلى قصرٍ مشيَّد. وفي أحيانٍ أخرى، يبهجني تغريد عصفور إذا عبست الدنيا لي. إن الشاعر يرى أن الطاقة والقوة ينبعان من الداخل فيفيضان على الخارج، ولكنني كما ترى إذا ركبتني الهموم، وأغرقتني الأحزان في ظلمات ثلاث، أهرب إلى أي شيء يبدد غيومي ويزيح ضباب روحي.

عزيزي،

لكنني اليوم غضّت نفسي عن كل شيء بسبب فكرة مؤرقة، هل ستنجح ثورات العرب؟ هل هي ربيعٌ حقًّا؟

***

مرت أيام ولا مجيب.

اتصل بها صديقها من رام الله يسألها عن سبب صومها عن الكتابة، لعلَّ طارئا عرض لها؟

نعم، في الحقيقة انقطاع في النت بسبب الإصلاحات، لذا لم أرسل لك شيئًا، لكنني أملك مادة جيّدة سأقدمها لك قريبًا.

كلما انقطع النت، قتلت أبطالي، ثم أعود لأحييهم من جديد.

ها هو فيلسوفنا، يعود للحياة في بث مباشر. في هذه اللحظة يرسل رسالة. إذن هو هنا، لا يحجبنا عبر الأثير سوى ضغطة زر.

أخذت تقرأ رسالته بنهمٍ واحترام يليقان بمستواه الفكري وأسلوبه الساخر، الذي يخفي همومًا جمعية ورغبة في الانعتاق والتغيير يضيق بها صدره.

هزَّت رأسها متوقعة رأيه، فهو لا يثق بالعرب أو بالعروبة، غير أنه لا يشعر بالخزي مثلها من عروبتها المجروحة، فهو ليس عربيًا خالصًا.

المشكلة كما يذكر لها ليست في قيمة الثورة المصرية، وإنما في العقلية العربية.

تسأله: ولكن أليست الثورة بداية التغيير نحو الأفضل؟

تنتظر لحظات، مزيد من الانتظار، فها هو الشات يشير إلى أنَّ كلامًا في الطريق.

"إن العبودية التي عانى منها المِصري ستتحول الآن إلى رغبة عارمة في التحرُّر من كل قيد، سيتحولون إلى آلة تدمير ذاتية بشرية، كما أن الثورات الحقيقية لا تكون بقطع رأس الفساد. الثورات الحقيقية

بطيئة ولكنها أكيدة، تتجه نحو العمق، وتكون داخلية كثورة الأخلاق وثورات النساء، ثم تتجه بعد ذلك إلى الخارج، فيصبح المجتمع صحيًّا بلا حاجة لمظاهرات وفوضى"

- هل تتوقع إذن مزيدًا من الفوضى؟

- بل أتوقع ما هو أسوأ من ذلك. سيكونون مثل كيس البصل، حيثما تدخلين يدكِ ستجدين "رأسا" يرفض أن يحكمه آخر. أنا أقترح عليهم منذ الآن تحويل مِصر إلى ولايات كونفدرالية، وانتقال سلمي للتوزيع الديموغرافي للسكان حسب الثقافة والميل السياسي.

- مثلما جرى في الضفة وغزة؟

قالت جملتها وأعقبتها بضحكة؟

- مع فارق، مِصر أكبر وولاياتها ستكون أكثر، ولن يكون هناك احتلال يقف في منتصف حُلم التقسيم. "سايكس بيكو" المصرية يجب أن تتم بأسرع وقت ممكن.

- يا لسخريتك الموجعة!

- الأيام بيننا.

- وهل تعتقد...

قاطعها:

-يكفي هذا لليوم. عودي للحديث مع حبيبك الجديد الذي تعدينه عريس المستقبل، ولكن اعلمي أنكِ لن تستطيعي معه صبرًا، فأنت نزارية الهوى، لا بد أن تتركيه كما فعلت مع آخرين. لن يصبر على تقلباتك أحد غيري، ألا تكونين لي؟ قال ساخرا.

فأجابت بحزم:

-لا! فأنت تسعى لتلقيني درسًا لا أكثر ولا أقلّ. تريد أن تنتقم لجنس الرجال جميعًا فيَّ. لن أحبك مهما...

لم تكمل ما كتبته فقد ذهب كما أتى بلا استئذان.

- ١١ -

- ستخرجين؟

- نعم أمي.

ابتسمت الشابة.

- ألن تفطري؟

- لا، اتفقت أنا وهو أن نذهب في جولة، وسأوافيه في المطعم لنفطر معًا.

- نعم، ولكن احذري قليلاً، بالكاد تعرفنا على هذا العربي، ولم يسكن في بيتنا إلا منذ أيام قليلة.

- أمي! "قالت الشابة محتجة" أنت تعرفين أنه أكثر حفاظًا عليَّ من جاك!

سرحت الأم ببصرها.. جاك ولدي! لقد اشتقت إليك.

في المطعم يجلس شاب بجانب النافذة ويترقب، إنه منتشٍ بهذه الحياة الجديدة، وسعيد بتلك العائلة التي استضافته لتعليمه اللغة الإنجليزية. الحياة في هيوستن ليست هادئة مطلقًا، ولكن حياته في شرقي بلاده أيضًا ليست هادئة.

لم يكن صعبًا عليه أن يقنع أباه بالذهاب إلى أمريكا لتلقي تعليمه الجامعي، فهو ليس أكبر إخوته، كما أنه ذكي، ومع أبيه من المال ما يكفي لتغطية المصاريف ونفقات العيش. "كما أن تخصصي الذي أسعى إليه سيفيد أبي كثيرًا في عمله، فالتعدين ودراسة خواص المعادن يحتاج إلى عبقري مثلي." (هكذا قال لنفسه مفتخرًا في اللحظة التي دخلت هي فيها المطعم.)

ابتسم، قالت له بدهشة: منذ متى وأنت تجلس هنا؟

- منذ ساعة إلا ربع.

- بكّرت جدًّا!

- أريد رؤية هيوستن الهادئة قبل ارتفاع الضجيج. أنتِ جميلة جدًّا، أنت أجمل ما في أمريكا.

- ويهودية، لأسفك الشديد!

- لا أحفل بذلك، أنت فتاة طيبة وهذا ما يهمني.

ثم صمت كلاهما طويلاً وهُما ينظران إلى بعضهما ليقولا ما لم ينطق به اللسان. شعر بنشوة غريبة مع تأملها.. شعور نائم وكأنه كان مغلّفًا بضباب كثيف بدأ يزول قليلاً قليلاً مع نفاذ نظرتها إليه، وكأن عيونها شمس تبدد الضباب. شعر باسترخاء غريب، شعور انعكس في عينيه.

سألته برقة وحنان: ما بك؟

انعكس أثر شعوره في عينيه. وشعر أنها تبادله النظرة نفسها. تلك النظرة التي دائمًا ما رآها، وظنها نوعًا من الطيبة التلقائية، لكن شعوره بها الآن مختلف. إنه عزف على أوتار القلب. وشوشة الروح للروح.

وجد قلبه يعزف ويقول:

كان يومٌ

يومَ ميلادي

ويوم انتحار الزمان على نحرك

يوم فيه ولدت ولأجله متّ.

فالسلام على يوم أحياني لأموت بعدك!

في ذلك المطعم، صباحًا، قد التقيتكِ. وكم ألف مرَّة قبلها لقيتك.

هل يفقد الألماس بريقه حين نلمسه؟ أو هل تطفئ بردنا ملامسة الشمس؟

دردشة وابتسامات عابرة.. صمت كل شيء خشوعا حين تكلمتِ.

أخبروني حين كنت صغيرًا أن المطر يسبقه برق ورعد، ولكنني يومها هطل الصمت علينا لم يسبقه غير نزف الصمت. هطل الحُبَّ وانشق القلب فكان وردة من أرجوان، أو طوق ياسمين.

ورحلت الثرثرة، وأضحى التداني بديلاً عن تنائينا.. وناب عن طول الجفا تلاقينا

أرسلت أنفاسي الحرى تتلو على قلبك سورة مريم العذراء. همسَ قلبي، ونبضي سفير: هل تسمعين شقشقة الحُب؟

فرد تورد وجهك والحياء!

يا لها! ما لها؟

لغة العذارى...

ما أحلى الخفر!

ماذا جنى القلب لتقيم عليه وجنتاكِ حدّ الحُب؟

واشتعل الرأس خمرًا.

أرسلت طرفي ليقتحم جلال عينيكِ.

ماذا قالت عيناكِ يومها؟!

كلاما لا يموت في بطون المعاجم ولا يولد إلا في هاتيك العينين.

قدسيةَ الشفتين:

لا شيء يعكّر صفو صمتنا، لا وردة في المزهرية، ولا قُبلة القهوة الشهية في الفنجان.

لا شيء يعكر صفو صمتنا، والوشوشة!

لا أنين الشارع، ولا نحيب الكمان..

أمرِّر صمتي على راحتيك..

اغتسلي بصمتي فقد غرقت في بحار الوشوشة!

حديث قلبي لقلبك مهرجان.

والفراغ الجالس بيننا على المقعد رسول سلام.

وأنا وأنتِ لوحة في معبد.

صمت كان فوق الكلام.

صمت تمشى بين روحينا لينفث كهاروت سحرًا.

صمت جميل، والصمت فن إذا تعددت اللغات.

صمت جعلنا لا أنا أنا ولا أنتِ أنت ولا الديار ديار.

وشوشة كالبشرى. والحب للإنسان ميلاد جديد.

***

أذكرك وكيف أنساك؟!

وفي قلبي حنين لا يفارقني

آه من حنين يمزقني

فلا النسيان يذكرني

ولا التذكر يعتقني

من امرأة

إن مسها عطر

صاحت: أنا العطر!

***

بدأت الأم تلاحظ هذا التغيُّر الكبير في ابنتها وفي طريقة تعامله معها، يجلسان حتى ما بعد منتصف الليل في غرفة المعيشة يتحدثان، نظراتهما، إنهما لا يكادان يفترقان. بدأ يشتد بها القلق. حاولت أن تلمّح لها بقلقها من خلال تعليقات على نحو: "يبدو مهتمًا بكِ جدًّا" " عندما تكبرين ستجدين الشخص الملائم لكِ تمامًا، أنا على ثقة بأنه سيكون رائعًا ويليق بك"، وأحيانا تضمها قائلة: "آه يا طفلتي الصغيرة، سأحتفظ بكِ حتى تصبحي شابة يافعة في الخامسة والعشرين"

وكانت تقابل كل تلميحات أمها بصمت، كانت تدرك قلق أمها عليها، ولكن هذا لم يمنع شعورها المتنامي نحوه بالتمكن شيئًا فشيئًا.

بدأت الأم تستاء من كل ذلك، فهي يهودية متدينة ولا تسمح لابنتها بخرق قوانين الدين حينما تحب رجلا غير يهودي، وما يثير جنونها أنه عربي من أسرة متشددة في الدين حسبما أخبرها في بدايات تواجده عندهم.

قرَّرت أن تفاتح زوجها في الموضوع.

واستغلت خروجهما معًا عند العصر، فالحرارة تكون ألطف في صحراء شيواوا في صيف قائظ، حيث يتوجهان.

كان زوجها بعد الغداء مستمتعًا بالاسترخاء على أريكته وقراءة كتاب (الهيمنة أم البقاء)، لنعوم تشومسكي، بعد يومٍ شاق في أروقة

جامعة هيوستن. فقد كان محاضرًا في كلية كولين للهندسة بالجامعة.

- يا عزيزي، ألا تلاحظ هذا التقارب الشديد بينهما؟

لم يعلق، سوى بنظرة سريعة، ثم أكمل قراءة كتابه. قال بعد لحظات صمت " نعم لاحظت. " وكأنه يريد أن يفهم مرامي كلامها.

- إني أشعر بقلق "قالت بوضوح شديد" وأريد أن نتحدث بجدية في الموضوع.

أغلق كتابه بهدوء بعدما وضع فاصل الكتاب حيث وصل في قراءته، والتفت إليها مستغربًا:

- لماذا هذا القلق؟

- ألا تعرف لماذا؟ إن ابنتك تحب هذا العربي، وهو يستغلها!

-وكيف يستغلها؟ ألا يحبها هو أيضًا؟

احتقن وجهها من فرط الانفعال والغضب.

-وتريده أن يحبها كذلك؟ ولا تبالي؟ إنه يستغلها ليحصل منها على الجنسية الأمريكية، وهي صغيرة ولا تدرك الحقيقة. إنه ذو مال ويمكنه أن يخدعها بالهدايا التي يغدقها عليها. وحتى لو كان يحبها، ألا تبالي أن ابنتك يمكن أن تتورط في حُب شاب مسلم؟ أنت تعرف أن

هذا ممنوع في ديننا وغير محتمل.

-إن تزوجته وهذا أبعد احتمال فأعتقد بحسب الديانة اليهودية فإن الأولاد يكونون يهودا.أليس هذا ما يقلقك؟

- بل يقلقني شيء آخر، إن ما تتحدث عنه يمكن أن يكون لو بقيت هي يهودية.

ردَّ بابتسامة ساخرة:

- ماذا تقصدين؟، يا عزيزتي لا يمكنكِ أن تجبري ابنتك على ما لا تريد. قريبًا ستبلغ السن القانونية ولن تتمكني من فعل شيء. نحن في أمريكا ولسنا في إسرائيل.

أعتقد أنك يجب أن تعالجي الموقف بطريقة أخرى أو أن تتقبلي سيرورة الأحداث كما هي.

- ألن تفعل شيئًا؟

سألتْه بدهشة واستغراب.

- لا.

مطّها قليلا، ليعبر عن حزمه وعاد لفتح كتابه والغرق فيه من جديد. قامت غاضبة ودخلت المطبخ. بدأت تدور حول نفسها لفرط

التوتر. مسحت شعرها، حتى كادت تسقط قبعتها الدينية التي ترتديها النسوة اليهوديات.

ثم بدأت تفكر بهدوء: يجب أن أتصل بجاك، لا بد أن يتصرف، لعله يتمكن من إقناعها بالهجرة معه إلى إسرائيل.

خرجت من المطبخ أكثر هدوءًا بعد تلك الفكرة التي عزمت عليها. كان عليها أن تنتظر لتكلم جاك بعيدًا عن آذان الآخرين. في وقت آخر ربما.

***

أرسلت الكاتبة ما قادها أو قادته في رحلة الأفكار للأديب في رام الله. وانتظرت الرد.

جاءها الرد السريع متلهفاً:

أشكر لكِ ما أرسلته، والليلة سأسهر عليه.غدًا أرسل لك تعليقي وإضافاتي.

إضافاتك؟سألت نفسها. أنت لا تضيف ولا حتى حرف واحد في الرواية! أنت تقرأ وتنتقد النص. ألم يكن اتفاقنا أن نكتب الرواية معًا؟ يا له من رجل! لن أسمح له بتسلق جدران عملي والتلصص عليَّ، ثم

ادعاء الملكية لنفسه. لن يكون له إلا حق الشكر لوقته ولآرائه في نصي.

كادت ترسل له رأيها فيه مغلّفًا بلباقة التعبير، لكنها عزفت.. ما زلتُ بحاجة لآرائه. ولننتظر ماذا سيكون مستقبلا.

مرَّ الليل بطوله ولم يرسل لها شيئًا، فقررت أن تستمر في الكتابة لحين رده.

- ١٢ -

فتحت "آنا" حساب الفيسبوك.. رسائل كثيرة وتعليقات هائلة، أغلبها من شباب عرب يهيلون عليها عبارات الغزل الناعم أو الفج أحيانًا. لفت اهتمامها رسالة من الشاب المصري، هو من الشباب الثوريين المتحمسين والمحسوبين على التيار العلماني.

قرأت الرسالة باهتمام:

"عزيزتي آنا، أنا شاب مصري محترم. وقد لاحظت اهتمامكِ بالشأن المصري، وأذكر أنك أشرت إلى أصولك قبل رحيل أهلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية، واسمحي لي أن أبدي إعجابي الذي أخفيته مدة طويلة عنك.

اسمحي لي أن أعرِّفكِ بنفسي أكثر. أنا شاب مصري عمري ٢٨

سنة. درستُ اللغة الإنجليزية، وأعمل في وظيفة محترمة تدر عليَّ ربحًا وفيرًا، "يا له من كاذب" أكملت بانزعاج بادٍ :

كل ما أتمناه أن نتعرف أكثر. لا أريد أن أكون ثقيلا، ولا مادحًا لنفسي ولكنني شاب عصامي جدع، أحترم المراة ولا أطيق الكذب ولا النفاق، كل ما أرجوه أن نكون أصدقاء"

رباه! ماذا سأرد عليه؟ إنه إذن لا يتبرع لتعليمي اللهجة المصرية بالمجان!

ماذا سأكتب له؟ حكّت رأسها، ثم قررت أن أفضل رد هو تشجيعه بكلمات قليلة ولتنتظر ماذا ستجد.كتبت آنا بالعربية المصرية الركيكة:

" انا يحب مصري كتير، احب ثوره وثوار. انا يحب يزور مصر ويحب شباب مصري، سعيده ان آنا تعجب انت"

وابتسمت وضغطت على زر الإرسال.

كان الردُّ سريعًا كأنه البرق. فتحت صندوق الرسائل، خاب توقعها، لم تكن الرسالة منه، كانت من راشيل تقول فيها:

" عزيزتي آنا: سألتني إن كنت سعيدة أم لا.

الآن أعطيك الجواب. أنا سعيدة جدًّا لأنني يهودية مؤمنة تخدم وطنها بإخلاص. لقد قدم لي هذا الوطن الكثير، لقد خلّصني من

مرارة الفقر في الغربة، وحولني إلى إنسانة مثقفة تتكلم أربع لغات. أنا سعيدة وأتمنى لكِ أن تتحولي إلى يهودية مخلصة تقف في وجه الظلم والطغيان الذي لحق باليهود، مؤمنة بحق العودة لأرض الميعاد، هذه الأرض التي أنقذت آلاف اليهود من هولوكوست جديد كاد يفنيها."

شعرت آنا بأن لديها الكثير لتقوله، كتبت في الحال ردًّا تقول فيه:

" عزيزتي راشيل،

لولا أنني مخلصة لديانتي لما حاولت الدفاع عنها أمام العالم الذي بدأت تشتد عدائيته لسياسة الدولة الإسرائيلية.

عزيزتي، تتحدثين عن الهولوكوست، سأخبركِ أمرًا: جدتي لأمي ماتت في الهولوكوست وهربت أمي مع خالتي إلى أمريكا، قبل أن تلتقي بأبي. وقد شهدت أمي بعينها ما جرى على أيدي النازيين، وقد تعذبتْ حقًّا بمارأته! هنا الناس تعرف عن الهولوكوست أكثر مما تعرف عن هيروشيما، بفضل المتاحف الكثيرة.

أنا مثلكِ يؤلمني ما جرى لشعبنا وقتها، لكن ما دمنا قد ذقنا طعم الظلم، فلماذا نسمح لأنفسنا بأن نتحول إلى نازيين جُدد يقتلون الناس؟ لماذا تحولنا من مظلومين إلى ظالمين؟ لماذا سمحنا بأن نتقمص الدور الذي أبكانا دومًا؟

مشكلتي مع السياسة الإسرائيلية أنها سمحت بأن يشار لليهود في كل العالم بأصابع الاتهام حول الكثير من المشاكل. لقد فقدنا الكثير من الثقة."

لم يلبث أن وصلها من راشيل الرد التالي:

"آنا عزيزتي،

من يقول أن إسرائيل فقدت الثقة؟ أصابع الاتهام تشير كلها للإرهاب العربي والمسلم المتطرف الذي لا يتوقف عن افتعال المشاكل والتفجيرات بحق الأبرياء. حماس في غزة، وفي الضفة تروِّع الآمنين وتقتل الأبرياء، هل تدافعين عن علاقات حسنة مع هؤلاء؟!"

ردَّت آنا:

" عزيزتي راشيل،

أتفهم موقفك، لكن ألا ترين أن أي شخص أو شعب يشعر بتهديد لوجوده وهويته سيتصرف بردة فعل عنيفة للحفاظ على بقائه؟

لقد عانينا من الهولوكوست، فلماذا لم تدفع ألمانيا الثمن؟ لماذا يدفع العرب الثمن؟ لقد عاش جدي لأبي في مِصر، ولم يشعر يومًا بالفرق، فلماذا يكافأ العربي على حُسن الجوار بدفع ثمن ما لا ذنب له

فيه لا من قريب ولا من بعيد؟

إن مقولة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" مقولة من شأنها أن تسبب المشاكل حين تكون مغالطة تاريخية كبيرة.

لم يكن مرفوضًا أن يعيش اليهودي في فلسطين، فقد شهد التاريخ بوجود كثير من اليهود في تلك البلاد منذ زمان بعيد، لكن أرض الميعاد فكرة دينية بأبعاد سياسية، لم تقبل بأقل من الاستحواذ، من هنا بدأت المشاكل. أقترح عليك إعادة قراءة التاريخ بعين محايدة فعلاً. "

توقفت رسائل راشيل. كان المراقب العام يملي عليها ما ستكتبه، لكنه شعر بأن راشيل مضطربة، ولم يشأ أن يقحمها في هذه الحوارات وهي غير مدربة كفاية لخوضها. ففضل نقل المهمة إلى طرف آخر.

***

جاءها الرد من الأديب معلِّقًا على ما كتبتْه:

"لن أعلِّق كثيرًا، الفكرة جيدة، ولا تهتمي للأسلوب فهو وسيلتنا المتبدلة لطرح أفكارنا، ويمكنك دومًا تعديل الأسلوب والتلاعب به، المهم أن تركزي على الفكرة، وهنا أطرح عليك سؤالين:

ما هدفكِ من هذه الرواية؟

كم من الوقت نحتاج لنكتب رواية ما؟

لا أنتظر جوابًا، ولكني أتمنى أن تفكري في أسئلتي. ولا أمانع لو طرحتِ مزيدًا من الأسئلة بعدها"

قرأت الرسالة بعيون قلقة، كان مبعث قلقها هو رغبتها اللامتناهية في تفتيت محتويات الرسالة إلى الحد الأقصى بوقت مثالي. إنها تريد أن تخترق جدران عقله وتقرأ رأيه بجلاء، ثم تكوّن بعدها رأيها. ليس لتتأثر به، ولكنها عادة تحب مناقشة أي فكرة تخطر لها أو تطرح عليها بوجود طرف ثان، وهذا كان مستحيلاً هنا. فلا طرف ثانيًا يمكنه أن يعطيها الكثير دون أن يعرف التفاصيل، سوى هذا الكاتب، وها قد تركها وحدها.

حسنا! أخذت نفسا عميقًا..

كانت الكتابة لها بمثابة مشكلة فلسفية عميقة، هي ليست مجرَّد هواية تمارسها. إنها ذات يذوب بعضها بين السطور والأفكار، قلق، وشهوة؛ شهوة للحياة، للخلود، للتعبير، للصراخ، للهرب وللمواجهة. بل وأبسط من ذلك: هي متعة!

توقفت قليلاً وعادت لقراءة السؤل الأول:

ما هدفك من كتابة الرواية؟ اتسعت حدقة عينها، ثم ابتسمت

بسخرية! أنا فعلاً بدأت أفكر في أسئلته! وهئنذا أسأل نفسي وأجيبها.

ثم تذكرت أنه لا ينتظر جوابا! ليس المهم الهدف من الرواية، ولكن المهم أن تعرف لمن توجه روايتها، ولماذا، وماذا تنتظر من نتائج. لو عرفت ذلك لعرفت الجواب عن سؤاله.

لكن هذه الأسئلة تبدي أن الرواية رسالة.

هل الكتابة أو الأدب عمومًا رسائل؟ أيجب أن تخضع لتنظير قومي أو فكري ما؟ ماذا لو كانت مجرد ريشة؟ رسم بالكلمات لا أكثر ولا أقل!

ولكن، حتى ما نرسمه يخضع لشيء في دواخلنا، فنحن ننتقي ما نراه أو نفكر فيه، إذن نحن لسنا موضوعيين، والأدب ليس ريشة تخط الواقع دون أن يتدخل فيه.

إذن لماذا نكتب؟

الكتابة لمن يعانون من مرض الاهتمام أو الفضول، طبيب نفسي، يبيعك وقتًا طويلاً ليسمعك، ووقتا أقصر لينسى ما قلته، سيطرة للأنا الآخر فينا، فنفهم أنفسنا أقل أو أكثر.

إنها مرآتنا، التي تخبرنا أننا لسنا بخير، تخبرنا كم كبرنا! وكم تغير

مسار نحلة عابرة في أرواحنا!

الكتابة حيلة ماكرة لتوجيه عيون كثيرة، لتنظر إلى الشيء ذاته معًا، ولعقول كثيرة كي تحتلها، ما استسلمتْ لك، معًا.

لماذا أكتب رواية؟ لكل ذلك معًا، أو لحاجة خارج المربع كاملا.

المبتدئون يكتبون ليثبتوا لأنفسهم أنهم بخير، نوع من النرجسية السطحية لمداعبة حُلم ما بالشهرة وبالقدرة، أو تقليد في التعبير، لإغراء أنثى ما!

أما من يكتب شيئًا جيّدًا، فإن دافعه لا مرايا فيه، لا ينظر إلى نفسه في المرآة حين يكتب، فما يؤرقه أجلّ من التفكير في ذاته. قد يقلق بشأن رضا الآخرين، وما قلقه ناجم إلا عن رغبة ملحة في وصول صرخته أو آهاته للعالم.

كتابة المبتدِئ كالوجبة السريعة، سهلة التحضير سريعة الالتهام. احتجت إلى ست سنوات بين اتخاذ قرار كتابة رواية، وسنتين لإنجاز الفكرة، وأشعر بخجل من أن أسميها رواية! وهئنذا أشهد ضد نفسي، فأن تنقض على نفسك أقل وحشية من أن يبتلعك الآخرون.

فالكتابة حِملٌ لا بد له من مخاض، و الكتابة غيمة، لا تستعجلها بالانهمار قبل أوانها، والكتابة جرح، لا تتركه قبل أن تشفيه مهما طال

الوقت، وأنت رسول والكتابة وحي، كن طيبًا وصبورًا، لا تستعجل الوحي، ولا تنتظره بالتوقعات، دع الوحي يقول ما يشاء لا ما تشاء.

- ١٣ -

خرجت راشيل إلى الغرفة المخصصة للمدخنين، أخرجت سيجارتها ونفثتها بعصبية وقلق، لم تكن تشعر بالرضا عما تفعله؛ أنا لست إلا مومس! قالت لنفسها، كانت تشعر بألم حاد في عروقها، ألم وتشنج رهيب، كانت تنفث سيجارتها وكأنها تعضها لتنتقم منها، كانت تبتلع أنفاسها بقوة وتبقيها أطول فترة ممكنة في صدرها كمحاولة بائسة للانتقام من ذاتها. أوصلَ الحد بي إلى أن أرسل صوري عارية لأحد الشباب العرب في محاولة لاستدراجه ليقع في حبي، لتجنيده؟ لن يتوقف الأمر هنا، لا بد من استدراجه لزيارة إسرائيل أو الالتقاء به في أي بلد آخر، يكفي إن لم تستطع إحضاره إلى البلاد، أن تصوره في فيلم "syper sex"، لتوثقه قليلاً قليلاً حتى يقبل التعاون. أو يكفي أن يقع في حبها، ويطمع في الجنسية الإسرائيلية والعمل المجزي الذي توهمه به، ليصير لها خادمًا مطيعا بعد مدة.

إنها لا تستطيع أن تتخيل..

راشيل: ما بكِ؟ سألتها أنيتا.

- أنا.. لا أستطيع أن أستمر، أشعر باختناق، أريد إجازة.

- أهو الشاب السوري؟

سكتت راشيل، على حذر.

- لن تستطيعي تقديم إجازة، فمدير الفرع في إجازة لمدة أسبوعين حسبما سمعت. عليك الانتظار لحين عودته.

- أنا فقط قلقة بسبب سفر جاك.

بلعت أنيتا ريقها، "مسافر إلى أين؟"

- أمريكا. كنت أريد الإجازة لأسافر معه.

- آه، فهمت! أظن أن ذلك صعب الآن كما أخبرتكِ.

لا تقلقي سيعود راشيل. لا يمكنه ألا يعود. تعرفين حُلمه وواجباته. لن يطول غيابه، ويمكنك السفر معه في مرَّة أخرى.

- نعم! وتنهدت، ثم أطفأت سيجارتها الثانية، واستدارت للرجوع لعملها.

***

راشيل! راشيل! نادى جاك بعصبية واضحة حينما دخل البيت. كان وجهه شديد الحمرة ويبدو عليه الانفعال.

كانت سارحة على الشرفة وفي وجهها قلق وضيق لم يفارقها. لكنها لما سمعت صوته شعرت بشعور أقسى من قلقها، هرعت إليه، وليس في خاطرها إلا أنه اكتشف مصدر أموالها وطبيعة عملها. كانت المسافة بين الشرفة والصالة حيث يقف أقصر من أن تفكر في عُذرٍ تختلقه، أو مبرر تصنعه، أو كذبة تبدد بها كلامه. قابلتْه بوجه مضطرب وأنفاس لاهثة، وابتسامة مسلوبة: ماذا بك؟ قالت بصوت مرتجف.

- راشيل، أريد إجابة واضحة عن سؤال واضح! قال بعبوس يقطر من وجهه.

هزت رأسها موافقة، وهي عاجزة عن النطق.

أخذ نفسًا عميقًا، ورفع رأسه ونظر إليها من أسفل عينيه بغضب واضح، قال ببطء:

-لو أن شابًا عربيًا يشكِّل خطرًا على أمن دولتنا، ولكنه يحمل فكرًا ماركسيا، وقع في مأزق، هل ستساعدينه أم هل ستبلغين عنه الدولة؟

فتحت فمها مشدوهة، توقفت أنفاسها للحظات، وألف خاطر يجول في رأسها.

- ١٤ -

كانت آنا مصدومة أمام ذلك الطلب اللحوح، للشاب المصري

بالحصول على الجنسية الأمريكية، كان لحوحًا لدرجة أن يطلب منها زواجًا صوريًا، ويقسم أغلظ الأيمان أنه سيتركها بمجرد حصوله على الجنسية، لو رغبت.

لماذا يحب أمريكا إلى هذا الحد؟ بالمقابل لماذا أحبُ مصر إلى هذا الحد؟ لكنني معذورة فجدي لأبي مِصري وكان يروي لي الكثير من القصص الشرقية الجميلة التي تشبه الحُلم، حول مِصر والحياة في مِصر، وناس مِصر، وليالي الأعياد في مِصر، وأهرامات مِصر، وطيبة شعب مِصر. لقد زرع فيَّ الحنين إلى بلد صرت أعده وطنًا، وأنا لم أسكنه أو أزره يومًا. لماذا لا يُحب مثلي مِصر؟

لو كنت مكانه هل سأتمنى الهروب مثله؟ هل أنا ناكرة للنعمة؟ أم أن الأمر يبدو كالآتي:

البعيد حين ينظر في الصورة يتمنى الدخول فيها والاندماج معها، فإذا حصل ذلك ودخلها، انشغل بالتفاصيل الصغيرة حتى ينسى جماليات اللوحة الكلية التي شدته إليها.

هزَّت رأسها موافقة على الفكرة، ذلك الشاب أو حتى أنا شخصيًا، كلانا واحد، ولكن زاوية النظر وسعة الرؤية مختلفة، كلانا يتكلم عن مِصر. أنا أنظر للصورة الكلية التي رسمها لي جدي في زمان سابق،

ولعلني لو كنت مكانه لشعرت مثله، أو لعله لو كان مكاني لشعر بحنين قاتل لمصر مثلي.

كلما زادت أسطورية القصة وبعدها عن الواقع كانت وطنًا أجمل للسكن فيه. وكما أن الخوف يولِّد في خيالنا صورًا أقسى من الواقع نفسه لو عجزنا عن المواجهة، والخوف يمنعنا من تذوق المتع الصغيرة التي تمنحنا إياها الحياة، فالحكايات الجميلة والهدوء النفسي يذكّيان الخيال بصور كلية، أجمل بكثير من الواقع بتفاصيله الصغيرة.

كلمته على الشات: هل شاركت في الثورة المِصرية؟

- نعم، شاركت فيها، ولم أترك الميدان إلا قليلاً.

-لماذا شاركت فيها؟ أليس من أجل غدٍ أفضل؟ فكيف تريد الرحيل في منتصف الطريق؟ قبل أن تقطف الثمرة؟

- ألم تري وتسمعي كيف فعل بنا الإخوان المسلمون؟ يريدون تحويل مِصر إلى أفغانستان، لا يمكنني احتمال ذلك. أردنا من الثورة الحرية والعدالة. ولكن الإخوان والسلفيين لم يوفروا لنا فُرص عمل، ولا نظافة، ولا تطهير للدولة.

- لكن الثورة لم تنته! ومِصر تحتاج وقتًا لتصير مثل نيويورك حيث أعيش. أنتم تستعجلون.

- أنتِ لا تعرفين! مرسي يريد تدمير مِصر، أنت يهودية وستعرفين مقدار جنونه حين أقول لك هذه المعلومة: مرسي أعلن أن القدس ستكون عاصمة مِصر.

- قد أعترض على الكلام، ولكن ما علاقة كوني يهودية؟

- يريد تدمير دولتك إسرائيل، ألا تغضبين وتخافين؟

- على فرض، فما شأنك أنت؟ هل أنت إسرائيلي؟

- طبعا لا! أنا مواطن مِصري مسلم، وأحب فلسطين، وسنعمل على تحريرها يومًا ما.

- لا أفهم، تريد تحرير فلسطين، ولكنك ترفض مرسي لأنه يريد تحرير فلسطين؟

- أنا أريد تحرير فلسطين، ولكن ليس على حساب مِصر أولا، وبطريقة سلمية مثل أنور السادات وليس على طريقة المجرمين حماس في غزة.

- لكنني لست إسرائيلية، للعلم.

-أنت يهودية! لم أفهم.

-نعم، يهودية شرقية من أصول عربية، وترفض فكرة العودة إلى أرض

الميعاد. وأتفق معك أن من حق الفلسطيني حياة كريمة دون احتلال.

سكت المصري طويلا، مشوش الفكر. ثم سأل آنا:

- هل تقبلين مساعدتي بالسفر أم لا؟

-سأفكر جديًا في الموضوع وأعدك أن أخبرك بقراري قريبًا جدًّا.

- ١٥ -

أصبحت علاقة "هي" به، تقوى كل يوم، يخرجان معًا، ويدخلان معًا، وينامان في وقت واحد، وأحيانًا يسهران الليل كله، فتنام على كتفه ويلقي رأسه على رأسها طوال الليل.كان حُبًّا عذريًا لكليهما، لم يكن ليطيق التفكير بها بصورة جنسية، لعلَّ شعوره بهذا الانفتاح المفاجئ ولَّد لديه ردة فعل عكسية عن كل الشباب في بلده، فقد تطرّف إلى الحد الأقصى في عذرية الحُب.

في المرة الأولى التي منحته فيها قبلة مفاجئة، لم يرتجف شوقًا ورغبة.

نظر إليها طويلاً بقلق، وأصابتها العدوى، فسألته:

- هل فعلت أمرًا خاطئًا؟

-لا، ولكني سأكون صريحًا معكِ. أنا أحبك جدًا، وتعرفين

ذلك، لكنني لا أحب أن ينزل مستوى حبنا إلى تلك الدرجة من الحب الجنسي. أريده حبًا نقيًا طاهرًا.

- لم أفهم، هل تقول إن حبنا غير طاهر؟

- لا، ولكني أريد أن أُحبَّكِ بطريقة مختلفة عن أي حُبٍّ عرفتِه في حياتك. أريد أن أكون مجنون حُبِّكِ أنتِ.

ابتسمت وعانقته، وإن كانت لم تفهم كثيرًا مما قصده.

وصارا يتبادلان الكتب والمعلومات حول ديانة كلٍ منهما. كانا يستمتعان بسرد القصص والطرائف والعجائب التي تضحك كل منهما في ديانته الشخصية.

سألتْه مرة، وكأن الفكرة خطرت لها للتو:

- هل تريدني أن أصير مسلمة؟

-لا، وهل تريدينني أن أكون يهوديًا؟

-لا.

ابتسم لها، وقال:

- أنا أريد لكلينا أن يتعرف على ديانة الآخر لا أكثر.

فأكملت بحماسة وقد التمعت عيناها:

– كل ما في الأمر، أننا نريد أن نفهم بعضنا أكثر، لنمنع أي سوء فهم بيننا، حتى.. حتى..

ثم خانها التعبير. فقال:

– حتى نساعد بعضنا في الحفاظ على بعض الخصوصيات الدينية.

عانقته طويلاً جدًّا، ولم تخبره بما انتوته، فقد كانت مجرد خاطرة، لم تفكر فيها جيّدًا بعد.

- ١٦ -

قالت راشيل متلعثمة، وفي عينها حذر وأسئلة وغضب: طبعًا سأبلغ الدولة، هل تشك في ذلك؟

أخذ جاك ينظف أظفاره، ثم رفع رأسه وسألها ببرود: حسنًا، ولو كان المطلوب منكِ التضحية بشيء لا تحبينه لأجل إسرائيل، كأن تفعلي ما لا تحبين؟ ثم أكمل بصوت أكثر انخفاضًا وعيناه مزمومتان ومركزتان عليها: كأن ... ثم سكت يراقبها.

قالت بضيق: كأن ماذا؟

– كأن تتزوجي عربيًا مثلا، لتعرفي أخباره وتوصليها لنا.

قالت مصدومة:

-لا أعرف، هذا صعب، ولكن سأفعلها لو أنت قبلت بذلك. هل تريدني... ثم سكتت فجأة، وقالت له:

-جاك أوصلها لكم؟ من أنتم؟!

فتح عينيه بدهشة وابتسم:

-قصدت الدولة، تعرفين أنني رجل عسكري وأتكلم دومًا عن الدولة بصيغة "نحن"! لا عليكِ..

ثم ضمها إليه مداعبًا شعرها، وقال: أنتِ فتاة طيبة.

بقي قلب راشيل قلِقًا مما جرى مع جاك، وكان ذلك الحوار آخر ما توقعت أن يحدثها فيه، بدأ الشك قليلاً قليلاً ينمو في نفسها حول تلك الأسئلة. هل يعرف جاك شيئًا عن موقفي من الشاب السوري؟ أنيتا لم تخبره بشيء بلا شك. هل يختبر بالصدفة ولائي؟ تبًا! حتى متى على الروسي أن يظهر ولاءه ليعامَل على أنه مواطن يستحق المساواة مع غيره؟!

كان شكّها في معرفة جاك بالأمر مجرّد محاولة لفهم الموقف، استثنائي التصادف، فقررت أن تفاتح أنيتا في الموضوع غدًا في الاستراحة.

خرجت راشيل إلى الشرفة خلال العمل، كما العادة، تدخن

سيجارتها مع فنجان قهوة، لم تكن تحب التدخين في الغرفة المخصصة المغلقة، كانت تشعر في الأماكن المفتوحة باسترخاء. كانت الغرف المغلقة تشعرها بتوتر وانقباض، لعلها تذكرها بغرفتها الصغيرة في روسيا، قبل الصعود لإسرائيل.

أو لعلها تخاف، لا هي لا تخاف، أسندت يديها إلى حافة الشرفة وأخفضت رأسها فتساقطت خصلات شعرها على ذراعيها.. أنا أحب غرفتي الصغيرة في روسيا، وأحن إليها أحيانًا، وبيتي هنا صغير، قبل أن انتقل للعيش مع جاك.. تنهدت، ورفعت رأسها ببطء، لكنني أحب وحدتي، هذا كل ما في الأمر، لا أشعر بالانسجام التام مع الموجودين، أفضِّل الاختلاء بنفسي، لعلني لا أشعر بالانتماء؟ أفزعها هذا الكلام، ارتجفت فقد تذكرت أسئلة "آنا" ثم قفز جاك وغضبه وأسئلته الغريبة إلى ذاكرتها فجأة، لماذا تذكرت جاك؟ هل هي فكرة الانتماء؟ أم لأنني لمحت شابًا يخرج من المبنى يشبهه؟ تذكرت الشاب الذي لمحته، فكاد قلبها يتوقف، ها هو يبدو خلف الشجيرات، إنها مشية جاك فعلا وملابسه! ماذا يفعل هنا بحق كل ما هو مقدس وجحيمي؟!

أطفأت السيجارة بسرعة، وخرجت، صادفت أنيتا في الطريق تخرج إلى الشرفة.

سألتها أنيتا عن سبب استعجالها، فالاستراحة لم تنته بعد.

- ذاهبة لأشتري علبة سجائر.

قالت راشيل بسرعة، ولا تعرف لماذا شعرت بحذر مفاجئ.

فضلت السلالم على المصعد، فهي أسرع، و الحركة أقل توترا للجسد القَلِق، من السكون وقوفًا في المصعد.

دفعت الباب الزجاجي للمبنى، وخرجت راكضة تلهث.. لفحها الهواء البارد.. نسيت أن تلبس معطفها، ولكن لا بأس.. توجهت إلى حيث لمحته.. لم ترَ شيئًا.. فكرت قليلاً.. لابد أنه توجه إلى موقف السيارات الخاص الأمامي للمبنى.

ركضت إلى هناك واختبأت خلف شجرة، رأت بالفعل سيارة تتحرك نحو الباب الحديدي الكبير، لكنها ليست سيارة جاك الأودي السوداء الأنيقة، كانت جيبًا أسود نوع فورد، رأته يخرج يده بالتحية للحارس، لا إنه ليس من ظنته. هذا معطفه أسود، يا لهذا السواد الذي يلف المشهد بالعتمة! لا يمكن أن يكون هو! هذا موقف سيارات الموظفين الكبار بالمؤسسة، جاك لا علاقة له بهم، وحتى لو جاء ضيفًا، فليس في الأمر شيء، هي مجرد صدفة عمياء لو كان هو.

عادت أدراجها، ليس جاك، خيالي مريض هذه الأيام بفعل التوتر.

نظرت في السماء وضحكت من نفسها وأفكارها. رأت أنيتا تراقبها من الشرفة، فارتجفت، لكنها رفعت لها يدها بالتحية، وهي تفكر في كذبة تروجها لو سألتها عما كانت تفعله.

حينما دخلت الشرفة، كانت أنيتا تستند بمرفقيها على الشرفة وتواجه راشيل بوجهها، وابتسامة ساخرة على وجهها، اقتربت راشيل بلامبالاة.

سألت راشيل أنيتا: ماذا فعلتِ مع صديقك الجديد؟ أقضيتما السهرة بالبيت؟ أم خرجتما لأكل البيتزا والمرح؟

لوت أنيتا فمها: لا، لقد طردته من حياتي. إنه رجل لم يستطع التخلص من شرقيته اليمنية البغيضة.

ضحكت ضحكة خليعة: "الروس في المجمع يسخرون منه طوال الوقت، لا يمكنني الاستمرار، أفضِّل أوروبيًا أنيقًا، أو لعلّني أعود إلى "رومان".

سرحت أنيتا قليلاً قبل أن تقول:

-لا زال مغرمًا بي، يبدو أنه لم ينس أيامنا الجميلة في روسيا، كما يبدو أنه جاء إلى هنا ليلحق بي، "رومان" المسكين! لعله يستحق مكافأة الآن على هذا الحب الكبير.

استنكرت راشيل على أنيتا ما قالته، ردت بما يشبه الاحتجاج :

-كان لطيف كذلك يحبك!، تركتِه فقط لأنه شرقي؟ ولأن الروس يسخرون منه؟! رومان كان أمامك طوال الوقت أنتِ لا تحبينه!

شعرت أنيتا أن من واجبها توعية هذه الفتاة الساذجة :

-راشيل، صغيرتي، نحن الروس حالة خاصة في هذه البلاد، يجب أن نحافظ على عاداتنا ولغتنا. نحن نملك خصائص مميزة، يجب ألا نسمح لها بالذوبان، وفي الوقت نفسه تعرفين أننا لسنا الأفضل هنا، لذا يجب أن نبحث عن الأفضل. رجل شرقي لن ينفعني إن أردت التقدم والحصول على مركزٍ عالٍ في هذه البلاد. لا أريد الارتباط برجل يسحبني للأسفل، إما أن أحافظ على تميزي أو أن أرتفع للأعلى قليلاً. صحيح لا أحب رومان، لكنه يحبني، كما أنه روسي صالح، وحبيب جيد، وطموح. لقد كنت محظوظة وذكية كفاية لترتبطي بجاك، سوف ينفعك هذا جداً، لا تتركيه.

سادت لحظات صمت، كادت راشيل تحتج على علاقتها بجاك، فهي تحبه، ولا تنظر للعلاقة مثل أنيتا. لم تفكر يومًا في اعتبار جاك جسرًا للعبور، لكن الانفعال خانها، فلاذت بالصمت.

تململت أنيتا في مكانها، ثم اقتربت من راشيل ببطء، رفعت ذقن راشيل لتواجه عيناها عينيها، قالت بتهكم: راشيل: هل اشتريتِ علبة سجائر؟

راشيل بارتباك طفيف:

-لا، لم أجد سجائري، على كل حال ما زال معي ثلاث سجائر.

-راشيل! من هذا الذي كنتِ تلاحقينه؟

- ها! ضحكت ضحكة خفيفة، ثم قالت وقد اتسعت عيناها: لم ألاحق أحدًا، آه تقصدين تلك السيارة الفورد السوداء؟ أوه أريد أن أشتري مثلها.

يجب أن أدخل نسيت معطفي، وأشعر بالبرد.

- ١٧ -

قدَّم الأب لابنته في عيد ميلادها الثامن عشر هدية جعلت الجميع مبهورًا، لكن الأمر تحول إلى ما يشبه الصدمة حتى للأب حينما فتحت "هي" هدية الأم واكتشفت أنها رحلة سياحية إلى ميامي تقضيها لمدة أسبوعين مع العائلة. كان "هو " الأكثر انزعاجًا، فهي لم تغب عنه من قبل مدة طويلة كهذه، لكنه احتفظ بصمته، مترقبا ردة فعلها على الهدية، لكنها لم تعقّب، كل ما فعلته أن عانقت أمها شاكرة لها.

في تلك اللحظات طُرق الباب طرقًا خفيفا، وتمايل خيال طويل، يحمل صاحبه باقة ورد ضخمة تخفي وجهه. وبقي واقفًا مكانه.

ابتسمت الأم، واقتربت منه فاتحة يديها للعناق، وقالت بصوت رقيق "اوه! جاك حبيبي. جميل أن تحضر لتشاركنا حفل عيد ميلاد أختك. كم أنت لطيف"

تعالت همسات الدهشة. ركضت "هي" وأبوها نحو جاك الذي كشف وجهه بضحكة كبيرة. عانق أمه وأباه، ثم حمل أخته وقبَّل رأسها. قدَّم لها الورد. وتلفت حوله كمن يبحث عن شخصٍ ما.

قدمت "هي" حبيبها العربي لجاك. صافحه، وهو يتأمله بعينين نافذتين، كأنه يعده بشيء مبهم. لم يكن الارتياح سيد الموقف بينهما.

تصاعد التوتر وبان على وجهها خلال الحفلة، وهي ترى جاك يهمس في أذن "هو" ثم انسحبا للشرفة يتحدثان. كانت تود بشدة معرفة ما يدور هناك. هي تعرف أن جاك ابن أمه في طباعه وميوله، ولن يقف مكتوف اليدين أمام علاقتها به.

لم يُتح لها أن تجلس معه جلسة هادئة كما المعتاد، استأذن "هو" للنوم تاركًا العائلة تستمتع بأحاديث جاك الذي استأثر بالسهرة.

استيقظت "هي" متأخرًا بعد سهرة طويلة، وأسرعت إلى غرفته تمشي على رؤوس أصابعها كيلا توقظه، تفاجأت بأن الغرفة فارغة. توجهت إلى المطبخ، ليس هناك، لعله خرج مع جاك. كانت أمنية

أن يحصل بينهما تقارب. لكن جاك في الشرفة بجوار أمها، اقتربت فصمت كلاهما، شعرت أن الحديث سرّي.

كانت شاحبة جدًّا، وقلِقة جدًّا، تبحث عنه ولا تجده، وتخاف من هذا الحديث السري بين أمها وجاك، تتوقع الأسوأ ولكنها لا تعرف كيف سيكون هذا السيناريو الحزين!

لبست بزتها الرياضية وخرجت لتمارس رياضة الركض الصباحية كعادتها، لكن هذه المرة لم يكن "هو" معها، لعله سبقها.

وصلت إلى المتنزه، رأته جالسًا حيث اعتادا أن يجلسا. اقتربت منه، لكنه لم يشعر بها، كان ساهمًا. جلست بجانبه، فانتبه لها، ابتسم.

- سبقتني اليوم للركض!

- لم أركض، أحببت فقط أن أكون وحدي.

- هل تحب أن أذهب؟

- لا، ابقي معي.

ثم ساد صمت طويل.

- كيف وجدت جاك؟

- شاب ناجح، يدعو للإعجاب.

ضحكت: ليس هذا ما قصدت!

ابتسم مجددا.

- ألم تلاحظ أنك..

قاطعها بقوله:

- لم أعطِكِ هدية عيد ميلادكِ؟

- كيف؟ وتلك القلادة؟ قطرة الماء تلك؟

ضحك وقال لها: يا صغيرتي، لا، تلك ليست هدية عيد ميلادك، تلك فقط جزء من الهدية.

- أوه! أخبرني ما هي هديتي؟هيا الآن أخبرني!

-سأخبركِ بشرط.

-ما هو؟

- لا تخبري أحدا عن الهدية، وخصوصا جاك.

نظرت إليه باستغراب.

-ما طبيعة الهدية؟

- سأخبرك قريبًا،حين تجهز. لكنني أريد منكِ أن تعديني بقبولها.

- قبولها؟ طبعا سأقبلها.

-مهما كانت؟

- نعم.

- ولو كانت تتعارض مع الهدية التي أعطتك إياها أمك؟

- أتقصد السفر؟ أعتقد يمكننا حل التعارض.

- لا أريد أن تبتعدي.

- لا تقلق، هي فقط رحلة عائلية، مع جاك لزيارة أقارب لنا في ميامي. منذ مدة أرغب بزيارة ميامي، لمَ لا تحضر معنا؟

- لا أستطيع، هذه رحلة عائلية.

تنهد، وضمها إليه، وقبل جبينها "عديني ألا يأخذك مني شيء"

نظرتْ إلى وجهه باستغراب، ومع إصرار عينيه، هزت كتفيها وقالت "أعدك"

- ١٨ -

فتحت آنا صندوق الرسائل، ردت على إلحاح الشاب المصري، بأنها فكرت حقًّا في الموضوع، وبأنها ستزور مِصر لتخبره بقرارها.

كان رده:

"لا يا حبيبتي، أنا سأزورك في أمريكا، فقط أرسلي لي طلب

زيارة، وسأتمكن ساعتها من زيارتك، لا تتعبي نفسك، رغم أن مِصر جميلة ستعجبك، لكن نزورها معا بعد أن نستقر في أمريكا"

ردَّت عليه:

"لا يا عزيزي، أنا أريد أن أزورها لأسباب كثيرة والآن، لكن يجب أن نرتب لقاءنا"

أرسل لها رقم هاتفه، وعنوانه.

طبعت تلك الرسالة، ووضعتها في حقيبة يدها، وأنزلت حقيبة سفر كبيرة، وبدأت بترتيب محتوياتها استعدادا للسفر.

- ١٩ -

كانت راشيل تتفقد صندوق الرسائل في مدخل العمارة، حين استوقفتها شلوميت:

-شالوم راشيل!

- أوه! شالوم.

- أراك تتسكعين في السوق، هل أنتِ في إجازة؟

- نعم، أشعر بتعب وقدمت إجازة مرضية لمدة يومين، وسألحقها بإجازة لمدة شهر. أتمنى أن يوافق المدير عليها.

- وماذا اشتريت؟

- لا شيء مهم، مجرد بعضًا من الخضار، والسجائر، والجوارب الشتوية.

- يبدو أن جاك مسافر!

- نعم. ذهب لزيارة أهله في أمريكا.

- احذري من الرجال راشيل، أنتِ روسية جميلة، لكنك لست المفضلة لأمثال جاك!

يا للوقاحة! قالت راشيل لنفسها وصمتت.

- ماذا تعملين راشيل؟

اضطربت راشيل للسؤال، فعملها ليس موضع إفصاح، قالت: أعمل مصففة شعر.

- أوه! مهنة جيدة للروس. ثم ضحكت بطريقة استفزازية.

ردت راشيل بحنق:

-نعم، فنحن جميلات كفاية، ونعرف كيف نجمّل الأخريات بدرجة تقنع الشباب!

- هل أنتِ سعيدة في إسرائيل راشيل؟ أوه! سؤال أحمق، لا بد أن

تكوني سعيدة وممتنة كذلك.

- نعم، أنا سعيدة وممتنة، لأصولي الروسية وديانتي اليهودية.

ثم صمتت وفي عينها نظرة تحد، وغضب.

نظرت إليها الجارة العجوز مصدومة، ثم قالت:

- حسنا، أتمنى لك التوفيق في عملك.

ثم انصرفت وهي تتمتم بعبارات عن وقاحة الشباب و جرأتهم، فهم لا يعرفون معنى الامتنان للعجائز الذين حولوا حُلم الدولة إلى حقيقة يتمتع بها هذا الشباب اللامبالي بشيء ولا يقدر قيمة شيء.

نظرت راشيل في الرسائل الصادرة إليها، لا شيء! أنا أستعجل، لقد قدمت طلب الإجازة منذ ثلاثة أيام فقط، ولا بد أن أنتظر مزيدًا من الوقت. لا بأس فإجازتي المرضية تنتهي غدًا، أتمنى أن يصل الرد قبل العودة للعمل. أريد الموافقة على الإجازة قبل عودة جاك.

ارتعدت وهي تصعد الدرج حتى كادت تفقد توازنها، تذكرت المال في البنك الذي سددت به بعضًا من قرض جاك، وتذكرت ذلك الشعور غير المريح تجاه كل ما يجري، وتذكرت نظرات أنيتا التي تشعر بأنها تراقب مشاعرها أثناء قيامها بذلك العمل المقزز في المخابرات.

دخلت الشقة، أخرجت من الأكياس قنينة فودكا، وشغلت جهاز الرد الآلي لتستمع إلى الرسائل، كانت تنتظر رسالة تطمئنها من جاك.

كانت أنيتا تتصل لتطمئن عليها، وتهنئها بالمكافأة الضخمة التي حصلت عليها بعد أن أنجزت مهمتها بالإيقاع بالشاب السوري بنجاح. رفعت يدها لا مبالية، وشربت جرعة كبيرة من الفودكا، ورسالة أخرى من أختها التي تسكن في شمال البلاد، تخبرها أن أمهما في روسيا مريضة وتحتاج للمال. ضحكت راشيل بهستيرية.. نعم، مزيد من المال.. هذا هو مزيد من المال،.. أمنا يا أختي صحتها في أحسن حال، إنها تريد المال لذلك السكير العاطل عن العمل، الذي رفضت القدوم معنا بسببه.. امرأة حمقاء.

تجرعتْ مزيدًا من الفودكا، ثم ضحكت بجنون أكثر، ثم بكت. بكت بشدة.. هي ليست حمقاء، أنا الحمقاء حين قبلت القدوم إلى هنا، أنا لا أتقن العبرية يا أمي، لكنتي تفضحني، وهم لا يحبونني، وعليَّ أن أثبت كل يوم ولائي لإسرائيل حتى أضمن حياة كريمة.. عليَّ أن أبيع كل شيء لأشتري الخبز والملابس.

مسحت دموعها وهدأت قليلاً، كانت قد سمعت صوت جاك على الرد الآلي، ولم تتبين ما قاله، أعادت شريط التسجيل الآلي، كان

يطمئنها عن وضعه، قد يغيب أسبوعًا آخر!

وقفت في منتصف الغرفة وبطريقة مسرحية قالت:"عزيزي جاك خذ وقتك! مهما ابتعدت ستعود لتجدني بانتظارك" ثم أكملت بنبرة أعلى وصوت ساخر:"لأنني، ببساطة، لن أجد مكانًا آخر أذهب إليه، لو تركتك سأعود لفنادق الدعارة ذات الثلاث نجوم. أنا لا أحبها فهي لا تتيح فرصة الاستحمام بين النوم مع رجل وآخر" ثم ضحكت." نعم أنا نظيفة! أحب النظافة جدًّا!"

شربت ما تبقى في قنينتها، وارتمت على الأريكة وراحت في نوم عميق.

- ٢٠ -

كان المكان بحرًا متماوجًا من الناس، أصواتهم كالهدير، وعلى المنصة مجموعة رجال، يهتفون والناس تردد خلفهم "سلمية..سلمية" و "ارحل يا سيسي، مرسي رئيسي" وقفتْ بين الجموع فتاة كستنائية الشعر، نحيلة، جذابة. كانت عيناها الخضراوين الداكنتين تدوران بين حائرة وسعيدة، لا تعي كثيرًا مما يقال، تهز رأسها موافقة على ما يجري. لاحظها شابٌ ملتحٍ من بين الجموع، فهمس لفتاة محجبة أن تذهب لتكلمها.

- السلام عليكم

- وعليكم سلام، ردت آنا بلكنة أجنبية.

- أنتِ لست عربية؟

- لا، أنا اميريكي وجيت أدعم مممممم. مش يعرف كلمة "Legitimacy"

- آه، قصدك الشرعية!

- أيوا هي دي.

ابتسمت الفتاة المصرية، وأضافت:

- طيب أنت ممكن تدعمينا بأمرين ممكن تساعديني فيهم؟

- قول، إتفضل.

ممكن تحملي الشعار ده؟ وترفعي أيدك بأربع أصابع مفرودة كده؟

-اوه! أعرفه هو شعار بروفايل على فيسبوك عندي. شوفي.

ثم أرتها لوحة عليها شعار رابعة كانت قد صنعته بنفسها كتب عليه "No Killing / لا للقتل"

ابتسمت المصرية: نعم. وممكن تسمحي لي أصورك وانزل الصور على الفيسبوك؟ ده يساعدنا جدًّا عشان العالم كله يعرف إن

اعتصام رابعة ليس إخوانيا فقط.

- أوكي.

وقفت المصرية بجانب آنا، وطلبت من زميلة لها أن تصورهما معا، وهما يحملان الشعار ويرفعانه بأيديهما.

- شكرا لكِ. أنا اسمي سمر.

- أنا اسمي آنا، وسعيد بمعرفتك.

- أي حاجة تحتاجيها أنا موجودة.

- شكرا شكرا.

رنَّ هاتف آنا الخلوي، فاعتذرت من سمر، وردت:

- آلو.

ابتعدت قليلا عن الضجيج لتسمع بوضوح أكبر، وبدت كأنما تبحث عن شيء أو شخص ما وسط الزحام. ثم انسحبت خارج الجموع الهادرة بصعوبة، عند طرف الشارع كان شاب يلوح لها بيد ويحمل هاتفه الخلوي على أذنه بيدٍ أخرى.

أقفلت جوالها، وتوجهت نحوه بحماس. لقد عرفته، إنه يشبه تلك الصور التي بعث بها المصري لها.

- هاي آنا.

-هاي طارق.

- أنت أيه اللي وداك هناك؟

- مش فاهم، أنا يعتصم مع ناس عشان مممممم شعرية.

ضحك طارق وقال:

-وكمان علموك تقوليها! يا حبيبتي هي شرعية مش شعرية. تعالي نروح نشرب قهوة ونتكلم.

- أنت مش ييجي يقف مع ناس مصريين؟

- أيه؟ أنا؟ دول مش مجانين مش عارفين عاوزين أيه، دول خرفان.

- ليه تقول كده؟

- ما علينا، أنت مش فاهمة حاجة، ولو وقفت معاهم هناك كمان شوية وعرفوا إنك يهودية ممكن يقتلوك.

- ليه؟ انا يحب مصر ويحب ناس دول.

- آنا، هم هيفتكروك جاسوسة إسرائيلية وممكن يدبحوك، انا خايف عليك. تعالي نروح نتكلم بعيد، وانا حفهمك.

وقفت مترددة، كانت تهم بالرجوع للميدان، لكنه وضع يده على كتفها وقال:

- نروح نشرب قهوة، وبعدين اوعدك أرجعك هنا تاني.

زمت شفتيها، وهزت رأسها موافقة باستسلام.

سارا معًا، حاول أن يضع يده على خصرها لكنها ابتعدت قليلاً بابتسامة.

رنَّ هاتفه، نظر في الرقم، تلك الفتاة اللحوحة، تتصل مرَّة أخرى، ألغى المكالمة وكأنه يلغي خلفه ماضيًا كاملاً بضغطة زر.

***

"أين وصلتِ في كتاباتك؟ "

كان هذا نص الرسالة التي أرسلها ذاك الأديب من رام الله لكاتبة الرواية.

شعرت ببعض الغضب منه بسبب انقطاعه، وعدم رده على أسئلة تُحيرها بشدة.

كانت قد سألته منذ مدة عن مفهوم الواقعية في العمل الأدبي، أيجب أن يؤخذ قبول الجمهور للعمل بعين الاعتبار أصلا؟ أم أن ذلك

يجعل الكاتب أشبه بمقدم برنامج "ما يطلبه المشاهدون"؟، كانت تراودها بعض المخاوف، كذلك، حول حجم الرواية المثالي.

لكنه لم يرسل لها بأي رأي، فقط سؤال "أين وصلت في كتاباتك"!

"حسنا، لم أصل إلى شيء، فقط أنتظر ردك على أسئلتي لأتحرك قليلاً"، ردت عليه بخبث، وقد عزمت ألا تطلعه على شيء، ستتعامل معه بمنطق الأخذ قبل العطاء، فهو لم يشارك في الرواية بشيء. كان شيطانها قويًّا كفاية ليوسوس لها بأن ذلك الأديب قد يعجب بروايتها وقد يسرقها منها! كانت قد نالت بعض التحذيرات حول ذلك.

ردَّ عليها:

-حسنًا سأعطيكِ نصيحتي حول انتقائك لمشاهدات الواقع واختيارك لما تريدين أن تكتبي عنه، وهي نصيحة مناسبة كذلك لك في كل شؤون حياتك:

"لا يكن الإنسان إسفنجة تمتص ما صفا وعكر، ولا يكن صخرة صلدة لا يلبث عليها طيب ولا خبيث، بل فليكن نبتة منفتحة على كل ما يقع من السماء، أو تبتلعه الأرض. ولكنها تنتقي ما طاب بصمت، لتخرجه عَطرًا شذيًا ولونًا أنيقًا.

في ظل الانفتاح المعرفي الضخم، وكثرة المتصدرين للحديث في

كل فن وعلم، اسمع للجميع، وحاول أن تفهم الجميع، واحتفظ بقلبٍ مصفًى من الشوائب يمتص كل حسن وطيب.

"الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه"، كل قول وأي قول يستمعون إليه، لكنهم ينتقون بصمت جميل، أو يَدَعون بهجر جميل ما لم يرق لهم.

كل شخصية في أي عمل أدبي لا تعدو أن تكون واقعية حدثت فعلا، أو قزم لظاهرة تحدث. قد لا نجد في السجلات المدنية تلك الأسماء في العمل الأدبي، لكننا لو فتشنا الضمائر والوقائع فسنجد ألفَ ألفٍ يتشابهون. لكن ذاكرة التاريخ تلتهمهم جميعًا لتبقى هي البطل والشاهد.

أما عن الجمهور فلا تقلقي على تقبله من عدمه، أحسني ما تكتبين ودعي غيرك يحكم وكما تطالبين القارئ بالثقة بكِ فعليك الثقة بعقليته واحترام مزاجيته واختلاف أذواقه، واعلمي أنه لا يستحسن الحسن إلا عقل حسن، ولا يستقبل القبيح إلا عقل قبيح، ولا يرفض الحسن إلا عقل قبيح، ولا يرفض القبيح إلا عقل حسن.

فمن وقع على كلام لم يعجبه، ولم يرق له، رغم حُسنه وجماله، فما ذاك إلا لأن في نفسه قبح أو فتور همة يمنعه عن تصديق أو قبول

واقعية ذاك. وأما من حسنت صفاته وأشرقت ذاته، فسيقبل الحسن ولو لم يفعله، وقد تنهض همته ليكون موصوفًا به، أهل لأن يمتدح به.

فنفس الشريف ذات همة نحو المعالي، ونفس الوضيع متخاذلة كسولة عن كشف الستار والتجلي.

وكم من فكرة شريفة، وحكمة لطب النفوس موصوفة، بقيت معلقة على الحيطان، لا تتعدى تزيين الجدران، حتى قام لها من كان جديرًا بها، فخطبها لذاته وألصقها بصفاته، فصيّرها واقعًا مقيلاً بعد أن كانت ضربًا من المستحيل.

ولا تحفلي بالكم، ولا تنظري للحجم، العبرة فيما يقال وما يفعل مرهون بأمرين:

المقام والمقال، فالمقام هو التوقيت المناسب لأي كلام، سواء أكان توقيته مناسبًا في رصفه وترتيبه ضمن الرواية، أو حسن اختيار الموضوع ومناسبته لأحداث المجتمع، والمقال هو جودة الرأي وحسنه ودقته، فكم من كلمات كثيرة كانت دقيقة لكنها كالساعة المضبوطة، لا تقدم ولا تؤخر، لأنها قيلت في غير مقامها، وكم من كلمات قلائل، قيلت في وقتها فقلبت نظام حياة الناس من التوقيت الصيفي إلى الشتوي.

ولا شيء يزين الكلام كالصدق، ولا شيء يعيبه كالكذب. ولا ينفي هذا مقولة "أعذب الشعر أكذبه" فالكذب الشعري، يعني المبالغة في وصف الحقيقة، وتشبيهها، ولعل الشاعر بحسِّه الخيالي لم يشعر لحظة حينما قال ما قال أنه يخرج عن الصدق إلى الكذب، لأن التجربة قد تقمصته فرآها بعين غير التي نراها، فهو حين يكذب، لا يقول إلا ما يراه صدقًا وحقًا. وعلينا أحيانًا أن نستأجر عينه لنرى ما رآه ولنشعر بما شعر به، حتى نعرف سبب تلك المبالغات التي ألحقها بكلامه.

ولكن بالنسبة للنثر والواقعية، فأرى أن ما يزدحم به الواقع، يغنينا عن طلب الخيال والمبالغة في التصوير، فالواقع مليء الأحداث تكاد تتفوق على الخيال واختراع الكذب، لفرط جنون هذا الواقع الزخم بما فيه من تشابكات وتعقيدات. فكم من واقع كالكذب اليوم، وكم من حقيقة كالخيال.

أنتِ كفلسطينية وكعربية، يحيط بك حتى يخنقك واقع عجيب وفي هموم بلادك وأمتك، لو وقفت عند وصفه وتناوله كما هو، لكفاك وأغناك عن كدح الخيال. ولو جاء قارئ بعد قرون لظنك من جماعة "أعذَب الشعر أكذبه" لولا أن التاريخ يصدّقك ويثني على مقولتك، ويتبنى ما تكتبين كوثيقة تاريخية.

كان كلامه عميقًا، ومكثّفًا، وعامًا، لدرجة أنها توقفت عن الكتابة،

ونالت منها بعض الكآبة، وهي تمعن في تلك الأشتات الفكرية التي قدمها لها. كانت تريد جوابًا بسيطًا، واضحًا على غرار: "قل ولا تقل"، لقد أتاح لها كلامه فرصة التفكير في أمور أخرى، دائمًا ما يحفزها كلامه على المزيد من التعمق، لا يشترط الموافقة التامة عليه، يكفي أن يثير في النفس أسئلة.. نعم هذا ما يفعله النص الجيد عادة، و حتى تفهم نصًا جيّدًا عليك أن تتحلى بالثقة في الكاتب، أي الثقة بأن لديه شيئًا مفيدًا يقوله، وأنك لن تعدم خيرا تجده في ثنايا سطوره، وعليك أن تتحلى ببعض الخيال الواسع لتتمكن من محاولة تطبيق كلامه على عدة جوانب من الواقع، وأن تتحلى بخصلة التأويل، التي تحملها طوال قراءتك للنص، لتتأكد من صدق أو كذب فهمك للرسالة العامة للموضوع.

كما أن هناك فارقًا واسعًا بين الخيال والتخيل، والفارق يكمن في الإجابة عن السؤال: هل ما تتخيلينه يمكن أن يحصل؟ إنْ نعم، فهو التخيل، وإلا فهو خيال مريض لا قيمة له على أرض الواقع.

استجمعت أفكارها، ولملمت شتات قواها للكتابة أخيرًا، وعادت تصل ما انقطع من أحداث الرواية.

- ٢١ -

عادت "هي" معه إلى البيت. كانا يبتسمان، لكن التجهم الذي علا

وجه جاك، حين قابلهما أوقف الكلام في حلقيهما، قال لها:

- أريد أن أكلمكِ على انفراد.

نظرت إلى "هو" لتطمئنه بعينيها، وسبقت جاك إلى المطبخ.

انسحب "هو" إلى الحديقة خارجًا، والقلق بادٍ عليه، لقد كان لحديث جاك معه البارحة أثرًا سيئًا عليه، رغم أن عناده الطبيعي قد جعله أكثر تمسُّكًا بها. لم يعتد على تلقي الأوامر، إنه ابن رجل ثري، وكلمته نافذة، وهو لن يسمح ليهودي كهذا أن يفرض عليه قراراته. رغم حُبه الشديد لها، إلا أنه بقي على موروثه الديني والثقافي في استنزاف العدائية تجاه كل ما هو يهودي، حتى لو كان الحق عند الطرف الآخر. مجرد الكلمة كانت تثير في نفسه العدائية والشعارات الرنانة. أما هي فلا يعرف كيف أحبها، ولا لماذا. لكنه يعلم يقينا أنه لن يحب سواها، ولن يتنازل عنها مهما حصل.

- حسنًا يا عزيزتي، لقد قررتُ تمديد إجازتي لنسافر معًا إلى ميامي

- جاك، أنا لن أسافر إلى أي مكان.

- لماذا؟ ما زال أمامكِ وقت للالتحاق بالجامعة،كما أن أبي سيساعدك في ذلك.

- الأمر ليس له علاقة بالجامعة.

- إذن؟

- أخي، أعرف أنك وأمي قلقان منه عليَّ، لكن أرجوك أعطه فرصة.

- فرصة؟ ألا ترين كيف ينظر إليَّ؟ إنه عربي مسلم متعصب! أتعرفين معنى ذلك؟

- أخي إنه يحبكم جميعًا، ولكنك بدأته بالعداء.

- أنا؟ لم أفعل!

- ماذا قلت له البارحة على الشرفة؟

- آها! أخبرك إذن؟ لو كان صادقًا في حُبِّه لنا جميعًا حقًّا لما أخبرك، ولكنه يريد الإيقاع بيننا، إنه يستغل المواقف.

- جاك، ماذا تريد؟

- أريد أن تتمهلي قليلاً فقط. أنتِ صغيرة، ويمكنك أن تجدي غيره لو أردت. هلا أخبرتني تصورك عن نهاية هذه العلاقة؟

- أنا لست صغيرة، لقد بلغت الثامنة عشرة ولي الحق أن أفعل ما أشاء بنفسي، وأنا أحبه وسأظل أحبه، وأظنه سيعرض عليَّ الزواج.

- الزواج؟ هل جننت! أنتِ يهودية، لن أسمح بأن تزوجي عربيًا مسلمًا متعصّبًا كهذا، ألم تفكري كيف سيعاملك أهله؟ هل تتوقعين أن يبقى هنا في أمريكا؟! أنت واهمة! سيتزوجك وسيأخذك إلى هناك حيث ستلبسين الأسود وستمنعين من حق الحياة، إنهم يمنعون المرأة من قيادة السيارة! سيجبرك على الإسلام؟

- جاك، جاك! كل مخاوفك لا صحة لها، لن يجبرني على الإسلام، لقد اتفقنا على هذه النقطة، ولو أسلمت فهي حريتي الشخصية. وإذا تزوجته سنعيش هنا.

- لن أسمح بذلك! إنه يخدعكِ ليحصل على الجنسية.

- كفى جاك. كفى!

اقترب منها، وفي عينيه غضب شديد:

- لن أسمح له بالسيطرة عليك وسرقتك منا.

- جاك، أنا لست طفلة!

- ما يجري خطأ كبير، أعطِ نفسك فرصة.

- يخيفك أنه مسلم متعصب، ألا تخيفك راشيل كذلك؟

تفاجأ من هذا الربط، فسألها: "وما علاقة راشيل بحديثنا؟"

شعرت أنها على وشك تسجيل هدف في شباكه.

- راشيل ليست يهودية نقية، أليس كذلك؟

-راشيل إسرائيلية. قال بإصرار.

- لكنها اخبرتني أثناء محادثة عبر سكايب أن والدها هو اليهودي، وأمها مسيحية، لذا رفضت المجيء معها لإسرائيل. وأنت تدرك جيّدًا أن اليهودي النقي، يستمد عنصره من أمه. لا أظن أمي ستكون سعيدة بهذا الخبر.

- هل تقومين بابتزازي؟!

-لا! قالت بكبرياء، وأردفت: لكنني أطالبك بالمساواة في المحاكمة.

- راشيل إسرائيلية! قال بإصرار مبالغ فيه.

ردَّت ببرود: وهو حين يحصل على الجنسية، سيصير أمريكيا، فما الفرق؟

خرجت من المطبخ وسط ذهوله، والتفتت إليه عند الباب وقالت:

- على فكرة، هو لم يخبرني بما قلته له البارحة، لكنني فهمت ذلك وحدي!

اندفعت مسرعة إلى الخارج، في الحديقة توجهت نحوه، التفت إليها، وأجلسها بقربه.

قالت له والانفعال بادٍ عليها:

- أريد أن أتزوجك، هل توافق؟

ملأت الدهشة وجهه، ثم ابتسم، وعانقها وقبَّل رأسها.

- قريبا سترين المفاجأة التي حضرتها لك، فلا تستعجلي بقول شيء قبل ذلك. اتفقنا؟

- اتفقنا، بعد عودتي من ميامي!

***

استعدت "هي" للرحلة التي أعدتها أمها لزيارة ميامي لأسبوعين. كان يشعر باضطراب وغضب، لكنه بقي صامتًا. كانت نظرات جاك تستفزه. حاولت إقناعه بالذهاب معهم، لكنه يعرف أن ذهابه سيزيد الأمور سوءًا، سيكون تحديًا واضحًا لجاك.. فكَّر.. جاك سيرجع قريبًا لعمله، لن يبقى هنا، لأدعه يظن أنه حقق شيئًا. أنا أثق بحبها لي. لن يغيروها. سيفشلون.

وعدتْه أن تتصل به دائمًا، وهكذا ذهبوا، وقرر أن يقضي الوقت في

سكن الطلاب باستضافة صديق عربي.

كانا أسبوعين مؤلمين له، لم يسبق أن ابتعدا كل تلك المدة، رغم الاتصالات بينهما لم يستطع أن يعتاد على الأمر. كان عصبيًا، حتى إنه صرخ في وجهها مرَّة حينما كلمته بعد يومين من الانقطاع. كادت تبكي فاعتذر لها برقة وبحزن، وعدته ألا يتكرر ذلك.

كان يعلم يقينا أن الحب لا يتأثر بالغياب، بل إن الغياب يزيده قوة لو صدق، لكنه لم يحب ذلك الموقف الذي كان فيه، لم يعتد في بلاده على التحدي. كان هناك هو من يضع الشروط ويفرض الواقع، لكن أمريكا لقنته دروسًا قاسية.

في ميامي، تفاجأت "هي" بأن صديقها القديم في المدرسة كان متواجدًا. بدا على الأسرة الاندهاش لهذه الصدفة، لكنها أخبرت أمها أنها لا تصدق هذه الصدفة، سألتها إن كانت قد دعت "نيك" أو سربت له الخبر.

أنكرت أمها كل شيء، أكدت أنها لا تعرف.

كانت غاضبة من مجيئه، هي تعرف كم حاول أن يتقرب منها وصدته، وزاد نفورها بعدما تعرفت على "هو".

حاول "نيك " كثيرًا أن يقضي معها الوقت على الشاطئ، أو

في لوبي الفندق، كان دائمًا مرحَّبًا به وسط العائلة، لكنها دومًا كانت تنسحب، هي لا تحب المواعيد المرتبة، لطالما أحبت التلقائية، وأن تسير الأمور على مهل. لم يكن ليضايقها وجود "نيك" في ظروف أخرى، لكن الهمس، والتلميحات، وشعورها بمحاصرته لها، جعلها متضايقة، كما أن غضب "هو" على الهاتف كان صادمًا لها، ظنته أكثر هدوءًا وإدراكًا للأمر. كانت تريد اختبار مشاعرهما حقيقة، كانت تؤمن أن الغياب يجب ألا يؤثر في العلاقة، وأن هذا الابتعاد القسري فرصة جيدة لتجرب نفسها. لذا لم يزعجها وجود نيك بذاته، كان مكونا إضافيا للاختبار.

اتصلت به لتخبره بموعد وصولهم. كان ينتظرها أمام البيت. ترجلوا من السيارة، ركضت تعانقه، سلم على الجميع بمن فيهم "نيك".

قال جاك: هذا نيك، صديقها المقرب أيام الدراسة، يسرني أن تتعارفا. نيك هذا طالب عربي انتقل للعيش هنا، ليتعلم اللغة كما يجب.

نظر هو إليها بحدة، نظرت هي بدورها إلى جاك.

قال "هو" بغضب وهو ينقل بصره بينها وبين نيك: أرجو أنكم قد أمضيتم وقتًا ممتعًا.

حاولت الإجابة، لكن جاك تدخل سريعًا: بالتأكيد! سنريك الصور تعال.

دخلوا المنزل، كانت أغلب الصور لها مع نيك، التقطها جاك خلسة. احمرَّ وجهه، وتسارعت دقات قلبه. كانت غيرته الشرقية قد غلبته، فاعتذر وخرج مسرعًا.

حينما نزلت من الطابق العلوي، بعد الدوش الدافئ، لم تجده، سألت عنه، فقيل لها إنه خرج لإحضار بعض أغراضه من السكن الداخلي. انتظرته طويلاً، لكنه لم يعد، آثر البقاء في السكن مع صاحبه.

عصرا قادته خطواته إلى ذلك المقعد حيث غفت على كتفه.كان كئيبًا، المشهد نفسه، لكنها غائبة هذه المرة. تذكر الأمسيات الجميلة في غرفة المعيشة المفتوحة على المطبخ، حيث كانت تعلمه اللهجة، ويضحكان بشدة من غرابة نطقه.

كان صوتها واضحًا جدًّا، كأنه خارج من أعماقه، كان الصوت قويًّا جدًا، تلفت حوله، كانت تقف خلفه مباشرة. ارتبك، لا شيء يقوله.

-لن أسألك لماذا لم تعد للبيت، أعرف أنك متضايق، وأعرف أن كلام جاك وتلك الصور أغضبتك. لن أتكلم كثيرًا، ولكن حاكم الحقائق وليس الظنون، حاكم العلاقات الطويلة، وليس المواقف العابرة. في الحُب عليك أن تنظر لمن قال الكلام وليس لما قيل، فالنوايا مهمة جدًّا. أيهما أقرب للتصديق حبي لك أم محاولات جاك؟

- أعلم أن جاك..ثم صمت، لكنها الصور! قال بغضب.

- كان يمكن أن تلتقط مع أي شخص آخر يحاول الاقتراب مني، أي شخص عابر كان يمكن أن يكون قريبا لذلك الحد. لا أحترم الذين يقبلون بدور الرجل الثاني في حياة المرأة. إما أن يكون كل شيء أو لا شيء. لست من النوع الذي يستدعي حبيبًا قديمًا لأوقات الفراغ. لقد كان أمامي طوال الوقت، قبل أن أعرفك، إنه لا شيء بالنسبة لي، كيف تغار من شخص تحول إلى تافه آخر في حياتي؟

-هل تحبينني حقًّا؟

- لم أتوقف عن ذلك لحظة. هيا لا تكن طفلاً فاسدًا.

-حسنًا.

-وسأخبرك شيئا آخر، الرحلة التي تحدثنا عنها، ستكون الأسبوع القادم.

-وحدنا؟

-طبعًا، هل كنت تظن أن "نيك "سيرافقنا؟ ضحكت.

- كلا، ولكن لعل جاك يحب أن يفعل.

- لا، جاك مضطر للعودة إلى إسرائيل، هو يظنك قد رحلت للأبد.

لذا لا بأس من أن تظل بعيدًا إلى أن يسافر.

نظر إليها متشككا.

-لا تقلق، سنلتقي كل يوم.

***

وضعت حقيبتها في صندوق السيارة، وانطلقا معًا. كانت الأم تبكي من خلف النافذة، كان الأب جالسًا بصمت واجم لا يحير نطقا.

قالت الأم: ديفيد، لقد سرقها منا، إنه يخطفها، لماذا لم تمنعها؟

- لا تقلقي سوف تعود، على الأقل فتشت في غرفتها، هي لم تأخذ جواز سفرها، ستعود فلا تقلقي، هي فقط نزهة.

بكت الأم بحرقة أشد، دارت حول الغرفة، عادت لتقف في وجه زوجها، صرخت:

- هل هذا ما تريده؟ لماذا لم تمنعها؟ لماذا لم تحذرها؟ لأجل هذا أحضرت ذلك العربي القذر ليسكن عندنا؟ لماذا لا تفعل شيئًا؟ لو كان جاك هنا لما حصل كل هذا.

قام بهدوء وضمها إليه، وقال:

- لا تقلقي، هو لن يؤذيها، هما فقط يحاولان الدفاع عن حُبهما،

لقد قسوتما عليهما، وتحولت القضية إلى تحدٍ وعناد. لكن ابنتنا لن تخذلنا صدقيني. سيعودان مساءً أو خلال يومين. هي قالت إنهما ذاهبان في رحلة أعدها لها بمناسبة عيد ميلادها. عليكِ أن تكوني أكثر هدوءًا. ثم همس في أذنها: وما كان عليك أن تطلبي من جاك التدخل!"

انطلقت السيارة مسرعة كالريح. كانت مكشوفة وصوت الموسيقى يملأ الفضاء، كانت ترتدي سروالاً قصيرًا وقبعة رياضية، وتقف على الكرسي تواجه الريح وتضحك. كان يشاركها الضحك، لكنه يحثها على الجلوس حِرصًا عليها.

وصلا إلى شاطئ البحر مساءً. بعدما أشعل النار، جلسا أمام الخيمة يستمتعان بصوت الصمت، إلا من هدير البحر الرائق.

- أنت بارع في إشعال النار، هل كنت في الكشافة؟

ضحك عاليا، "لا لم أكن في الكشافة "، قالها وهو يهز رأسه نافيًا ومقتربًا منها قليلا.

-كنا ننطلق عبر الصحراء قريبًا من الشاطئ الشرقي لبلادي، أنا وأصدقائي، نبقى طوال الليل حتى تطلع الشمس، هناك تعلمت إشعال النار.

قالت وفي عينيها نظرة مشاغبة:

-هل كنت تصحب الفتيات؟ ماذا كنتم تفعلون؟

صُدم للسؤال، تأملها طويلاً، ثم قهقه عاليا، طويلاً. استغربت ردة فعله، ابتسمت، سألته محتارة :"ما الأمر؟ هل قلت شيئًا مضحكًا؟ أنت تضحك لأنك تظنني أشعر بالغيرة صحيح؟"

سكت ساعتها فجأة، هي لا تعرف شيئًا عن طبيعة تلك الحياة.

أخذ نفسا عميقا وقال: في بلادي ممنوع أن يرى الرجل المرأة، فكيف يسهران معًا أو في جماعات في الصحراء بعيدًا عن الأهل!

- هل تمزح؟

-لا، قد يسجنان لو ضُبطا معًا.

-لماذا؟

-حرام.

-لماذا حرام؟

-لأن ذلك يؤدي إلى أمور حرام، مثل المعاشرة بلا زواج.

-قد يكونان صديقين فقط!

-لا مجال للصداقة، في بلادي لا ترى المرأة الرجل مطلقًا، لا في الجامعات ولا المدارس ولا الأسواق. ولو نزلت السوق فمع أخيها أو

أبيها أو زوجها فقط. لا مكان يرى فيه الرجل امرأة.

-ماذا لو كانت وحيدة؟ زوجها ميت، أو أبوها.

-لا تخرج! يجب أن تخرج مع أحدهم، ولو كان ابنها الصغير.

-ما علاقة ابنها؟

-محرم.

-لم أفهم.

-أي رجل من أقاربها يحميها.

-يحميها ممن؟ ألم تقل حتى لو ابنها الصغير؟ يحميها؟ إنه بحاجة لحماية. يمكنها أن تركب سيارتها، لن تتعرض للسرقة إذن.

-ممنوع ركوب السيارات للمرأة.

شعرت بصدمة "لماذا؟ هل هذا أيضًا حرام؟" لماذا حرام؟

تلفتت حولها مصدومة، صمتت قليلا، ثم سألته:

-هنا كثير من المسلمات يركبن السيارات، وأذكر أنني شاهدت برنامجا حول السياحة في الإمارات مرَّة. لم أرَ ما تقول إنه حرام. رأيت كثير فتيات في الأسواق. أليست قريبة على بلادك؟

-كيف أشرح لك؟

-هل هناك أكثر من إسلام؟ ولماذا أنت الآن معي؟ هل هذا حرام؟ هل سيغضب أهلك لو عرفوا؟

تنهد ثم قال لها:

-لا أعرف، لا، الإسلام واحد، لكن كلٌّ يفهمه بطريقته الخاصة. الأمر يتعلق بالدولة، هناك علاقة بين المؤسسة الدينية والدولة، الدولة تقرر كيف نطبق الإسلام هناك بمساعدة رجال الدين.

في الإمارات مثلا، يختلف فهم رجال الدين وتختلف علاقة الدولة بهم، لذا رأيت الوضع هناك مختلفًا.

-لا أريد العيش في مثل بلادك! هل تفكر في العودة إلى هناك؟ واضح أنك لا تفهم ما يفهمونه ولا تؤمن بما يؤمنون به، وإلا لما كنا نجلس هنا الآن.

-سأكون حيث تكونين فقط.

-عانقني!

-ماذا؟

-عانقني، هيا! وفتحت ذراعيها.

لم يملك أن يقول لا، كان عناقا طويلاً دافئًا.

- لنلعب لعبة بما أننا نحتفل بعيد ميلادكِ.

-حقًّا؟ ماذا سنلعب؟

-تعرفين أنهم يميزون عمر الحصان من أسنانه؟ كذلك الفرس. أنا أريد أن أعد أسنانكِ.

-هل أنا فرس؟ ضحكت.

-أنت فرسي أنا، وأنا حصانك.

-إذن ستسمح لي بأن أعد أسنانك؟

-نعم، بعد أن أعلمك الطريقة.

-حسنا.

-افتحي فمك وأغمضي عينيك.

اقترب منها كثيرًا، حتى شعرت بأنفاسه، أمسك رأسها بيديه وأغمض عينيه ثم أدخل لسانه في فمها، عضت لسانه، فسحبه كردة فعل سريعة.

ضحكت وقالت " أيها المخادع"

-لا، أنا فعلا سأعد أسنانك، ولكن بلساني.

-أوه! فكرة لذيذة، حسنا إذن.

-لكن دون عض!

-حسنا، دون عض.

عادت لوضعيتها السابقة، لم يلبثا أن تبادلا القُبل والعناق لفترة طويلة. عاهدته أن تظل وفية له، وعاهدها أن يكون حيث تكون.

قال وهما ممددان ينظران إلى النجوم ويستمتعان بنسمات البحر الرقيقة:

- الآن، سأعلن لك عن الشق الأخير من الهدية!

- توقعت ذلك! (قالت بخبث طفولي وقد اعتدلت في جلستها) فحين حدثتك عن قراري بأن نتزوج طلبت مني الانتظار، و أظن أن الرحلة هي ما يستدعي هذا الانتظار.

- نعم، كنت أريد أن أقدم لك هذه الرحلة كهدية، ستكون إجازة لمدة ثلاثة أيام، يمكنك خلالها التفكير فيما سأقترحه عليك. ولن تخبريني بالرد إلا بعد أن نعود إلى بيتك.

-حسنا، ولكن أريد أن أعرف الآن مقترحك، لا يمكنني الانتظار أكثر.

صمت قليلاً، أخذ نفسًا عميقًا وجلس قبالتها وركبتيه تلاصقان ركبتيها على الرمل، وقال:

- أنا أحبكِ جدًّا، ولن أحب غيرك، وأريد أن أبقى معك عمري كله، ولكنني لن أتزوجك الآن، يجب أن أنهي دراستي حتى لا يغضب أبي إن تزوجت يهودية، وأمامي حلّان، إما أن أبقى في أمريكا وأصير مديرا لفرع الشركة هنا، أو أن أعود إلى الديار لأساعد أبي في شركته. ليس صعبًا بقائي، هنا بل أنا الأجدر بين إخوتي بذلك. إذا قبلت بي، فأريد أن يكون ذلك عن قناعة وللأبد. ولكن أريد أن تأخذي وقتك كاملاً في التفكير. فإذا قبلت سأتزوجك بعد سنة، وإذا غيرت رأيك خلال تلك السنة فلن أورطك قبلها بزواج فاشل. ولكن اعلمي أني لن أحب غيرك مهما حصل.

نظرت إليه بحنان، عبثت يدها بشعره، ثم عانقته.

كان مصرًّا أن تمضي الأيام الثلاثة بحب أفلاطوني عذري. كان يقدسها لدرجة يرى أن ممارسة الجنس معها أمرًا مثيرًا للاشمئزاز، يحط من مشاعره تجاهها. هي لم تحاول أن تغريه، لكنها كانت مستعدة لإقامة علاقة معه لو طلب ذلك، كانت تلك طريقتها لتثبت حبها له وبأنه يمتلك حتى جسدها. في حين كان هو يريد أن يستأثر بروحها لا بجسدها!

- ٢٢ -

عادت راشيل إلى العمل بعد انقضاء الإجازة. كان يبدو وجهها

شاحبًا، ويداها ترتعشان طوال الوقت، من فرط الشراب والسجائر وقلة الطعام. اندهش الموظفون لدى رؤيتها بتلك الحالة، ظنوا أنها قضت عطلتها في العربدة مع أحدهم لدرجة أرهقت فيها نفسها، كانت التعليقات بين المشيدة بقدرتها على الإيقاع بالشباب لأثر جمالها الروسي عليهم، وبين المازحة والفضولية لمعرفة تفاصيل تلك الليالي التي قضتها. لا بد أنكِ اشتقت للجنس في الواقع بعد أن أرهقت بالجنس الإلكتروني.كانت ترد على كل تلك التعليقات بابتسامة شاحبة. كانت تشعر بأنها بحاجة لغمر نفسها بنهر جليدي لتغتسل، أو أن تنزع جلدها، خطر لها أن تقوم بعملية جراحية تغير فيها ملامحها الروسية التي باتت تشكل عبئًا عليها. لكنها أحجمت سريعًا عن الفكرة، فجمالها رغم كل شيء كان السبب في حصولها على جاك الذي أمن لها بيتا جيّدًا، ولولا أنها قبلت بهذا العمل قبل أن تعرف تفاصيله لأمن لها جاك عملا آخر. كان كل ما يشغلها الآن حقًّا، حصولها على إجازة شهرية بلا راتب، لتعيد فيه ترتيب أوضاع حياتها. لم يعد صعبًا أن تقنع جاك بالمال الذي أودعته في حسابه، لم يعد يقلقها ذلك الأمر.

في الاستراحة ذهبت مباشرة لمكتب المدير، سألت السكرتيرة عن طلبها، وكانت الصدمة المحبطة: (لقد تم رفض الإجازة لأن

المدير مسافر)، لكنها طمأنتها بأنه سيعاد النظر في طلبها بعد عودة المدير قريبًا.

أنيتا هي الوحيدة التي شعرت بما تعانيه صديقتها، فطلبت منها أن ترافقها لبيتها بعد الدوام، لتقضي تلك الليلة عندها بحجة إعادة دهن شقتها، سيكون ذلك لمدة يومين قالت أنيتا، لم ترحب راشيل ولكنها لم تعترض، فتم الأمر بموافقة باردة.

لم تحمل أنيتا شيئًا من أغراضها واكتفت بالحصول على بيجامة من عند صديقتها. هكذا كان الاتفاق.

دخلتا الشقة فهال أنيتا ما رأته من زجاجات الخمر الفارغة على الأرض، و الفوضى والرائحة الكريهة المنبعثة من الشقة. سألت راشيل عن كل ذلك فاعتذرت بعصبية أن غياب جاك يفقدها توازنها.

بدأت كلتاهما بتنظيف الشقة، حتى إذا فرغتا من ذلك مع غروب الشمس، دعت أنيتا راشيل لتناول الطعام في الخارج، رفضت راشيل لكن إلحاح أنيتا جعلها تقبل على مضض.

قررتا الذهاب إلى مطعم كنتاكي. فتحت أنيتا مواضيع كثيرة، تحدثت عن روسيا، وعن رومان الذي يغيب كثيرًا ولا يهتم بطبيعة

عملها، بما جعلها مرتاحة للبقاء برفقته، وتحدثت عن الحرب والسياسة، والانتخابات، ولم يخل حديثها من بعض التأفف من معاملة الروس في البلاد، فأنيتا أيضًا تحمل شهادة محترمة في هندسة المباني، لكن لم تتح لها الفرصة بعد لتعمل بشهادتها.

ولاحظت أنها لم تستطع الاستحواذ على راشيل بأي موضوع طرحته. كانت راشيل تأكل بلا متعة، وتهز رأسها موافقة، وتجيل بصرها في المارين بلا اهتمام.

سألت راشيل أنيتا وهما تشربان القهوة:

- أنيتا، هل أنتِ سعيدة بعملك هذا؟

ردَّت أنيتا بتردد ولكن بمرح ظاهر:

- للأمر مزاياه ومساوئه، الراتب مجز، والعمل ممتع، ويتيح لي فرصة لشكر الدولة التي أنتمي إليها لأنها فتحت لي أبوابها. ولكنه مرهق نفسيًا، خاصة مستقبلا حين أصبح أمًّا ولي أسرة، لكن لا أظن أن الأمر سيطول لذلك الوقت. لا بد أن أحصل على ترقية أو أن أغيِّر وظيفتي. هكذا نسير الأمور حسبما فهمت.

- لماذا علينا نحن الروس أن نثبت ولاءنا للدولة بهذه الطريقة؟

- نحن الروس؟! راشيل! أنت يهودية قبل أي شيء، وأنت الآن إسرائيلية ولست روسية.

- لكن لكنتي روسية وملامحي روسية، وأمي الآن في روسيا.

- هذه أمور تافهة! غيرك لكنته فرنسية، وملامحه فرنسية، وبقية أهله في فرنسا، لكنه لا يتذمر مثلك، بل ويخدم في الجيش بحب وإخلاص.

- في الجيش أنيتا! في الجيش وليس في المخابرات، ليست وظيفته أن يوقع الشباب العربي من خلال الجنس الإلكتروني!

- راشيل، لا فرق، أنتِ تحمين الدولة بتجنيد من يجلب لها المعلومات، وغيرك يحمي الدولة بقتال الأعداء.كلاكما يحمل سلاحه، أنتِ سلاحك "جمالك" أقوى من النووي صراحة ثم ضحكت برعونة، لكنها استدركت واعتذرت.

راشيل، حبيبتي، أتذكرين حينما كنتِ تشتغلين في ذلك الفندق؟ لماذا لم يراودك الشعور بتأنيب الضمير وقتها؟

- حسنا، لأنني كنت أفعل ذلك مقابل المال، وكان الرجال يدركون ما هم مقبلون عليه.

- وهل تظنين أن الشباب العربي على مواقع التواصل الاجتماعي لا يدرك ما يفعله؟ ألا تصارحينهم في مرحلة ما بأنك يهودية روسية مقيمة في إسرائيل؟ ويصمتون؟ ألا يستمرون في الأمر لهوسهم بالجنس، ولظنهم بأنكِ قد تمنحينهم الجنسية، بل ويمنون أنفسهم بأن يحولوك للإسلام في أحسن الأحوال! إذن كلاكما يعلب، والشاطر من يضع قوانين اللعبة أخيرا.

تأثرت بكلمات أنيتا. كانت راشيل لأول مرة تشعر بأن تأنيب الضمير قد بدأ يهدأ، بدأت تشعر بأن ذلك الشباب ليس ضحيتها هي، بل ضحية نفسه.

أكملت أنيتا حين رأت تجاوبا من راشيل:

- ثم دعيني أسألك سؤالاً واحدًا فقط.

- ما هو؟

- لماذا أنتِ الوحيدة التي تشعر بتأنيب الضمير؟

- وما أدراكِ؟لعل غيري كثيرات يفعلن!

نظرت إليها بدهشة: " وكأن هناك فروعا كثيرة لقسمنا، كل من يعمل في هذا المجال في القسم معنا، ولم أسمع شكوى من أحد يومًا،

ولو من بعيد. كلهم يحبون هذا الوطن ويخدمونه. أنتِ لا تعانين من أزمة ضمير يا راشيل.

قالت راشيل بسخرية :

- ما الذي أعاني منه إذن!؟

- أنت لا تعرفين ما تريدين، أنت تعانين من أزمة هوية. عليك معرفة نفسك أكثر، ومعرفة ما تريدينه، عليك تحديد أولوياتك لتحبي ما تفعلينه، ولتعرفي من هو عدوك الحقيقي.

- في الحقيقة أنيتا، خائفة أن أخسر جاك.

- ولماذا تخسرينه؟ ما علاقة جاك بأزمتك؟ المهم أن تمنحيه الثقة، فهو يحب إسرائيل جدًّا.

- ماذا لو عرف؟

صدمت أنيتا، وبقيت صامتة لدقيقة كاملة حتى إن راشيل استغربت.

- ما الأمر أنيتا؟

- أنتِ لا تعرفين؟ ظننت جاك أخبرك بكل شيء، أو على الأقل ظننت أنك أخبرتِه بكل التطورات التي تجري معك. ظننت أنك تعرفين! أو على الأقل تعرفين أنه يعرف!

- يعرف ماذا؟ قالت راشيل بهلع.

- اوكي! جاك هو مديرنا في العمل، وهذا ليس سرًّا، وطلب مني أن أستقدمك للعمل، لشدة ما أعجبه جمالك، وصدق توقعه بقدرتك على جذب الشباب.

- ماذا؟ جاك؟ كيف؟ لم أكن أعرف.. انتظري.

ثم قالت ببطء: جاك مديري في العمل؟ وطلب منك إحضاري؟

- نعم، وقال إن فتاة كهذه لا يجوز أن تهدر جمالها ببيوت الدعارة، إن لجمالها رسالة أسمى تؤديها.

أمسكت راشيل رأسها بين يديها، وضغط شعرها بقوة حتى كادت تخلعه.ثم صرخت، حتى لفتت انتباه الحاضرين:

- لماذا لم يخبرني أحد من قبل؟!!

فزعت أنيتا، فأخذتها وخرجتا من المطعم. حاولت تهدئتها، لكن راشيل كانت تهلوس بأسئلة كثيرة، كان أفضل حل هو العودة إلى البيت.

أمسكتها من يدها، حتى قادتها إلى الأريكة. أحضرت لها بعض الكونياك لتهدأ. حتى ذهبت في نوم قلق محموم.

استيقظت راشيل في اليوم التالي، ولم تتمكن أنيتا من تركها،

شعرت أن الموقف متأزم

فطلبت إجازة عارضة لكلتيهما.

- ٢٣ -

شربت آنا قهوتها باستمتاع، كانت زيارة مِصر حُلمًا مؤجلاً، تحقَّق أخيرًا.

- لازم يشكر انت طارق، شجعتني أزور مصر بسرعة.

- تحبي نتكلم إنجليزي؟ انا أعجبك بالإنجليزي.

وضعت فنجان قهوتها وقالت بتلهف:

- لا لا، انا يحب يتكلم مصري، انا يعرف مصري، انا عاوز يصير احسن يحكي مصري.

- ماشي يا ستي زي ما تحبي. قال ذلك مبتسمًا وهو يغير جلسته،لحديث أكثر ألفة.

-مش عارف أنت بتحبي فيها أيه والأوضاع زي ما انت شايفة. انتِ تيجي مصر لما تتحسن الأوضاع وانا أعمل معاك اجدع واجب.

هزت راسها غير موافقة، وابتسمت:

- اهرام ونيل واقصر، مش يروح، لكن اللي يحصل دلوقت مش

ممكن يتعوض، تشوف ناس، تسمع ناس، تكلم ناس، احداث تتغير، اهرام تاريخ زمان، اللي يحصل دلوقت تاريخ جديد، وانا يحب يكون جزء من تاريخ جديد يتكتب واقول لاحفادي انا كنت موجودة.

- انتِ بتفكري ازاي؟ انتِ غاوية شقا بقى!

- انا يشوف امور بخير، ناس مش يخاف، ناس يعرف ايه ديموقراطية، ناس يطالب بشرعية.

- ايه! هو انتِ قلبتِ إخوان ولا أيه! ثم ضرب كفا بكف.

- انا عاوز يسأل: انت مش قلت تخاف من إخوان؟ دلوقت مفيش إخوان. ليه عاوز يسافر؟

- عشان أقدر أحقق أحلامي لازم أستنى عشرين سنة هنا.

- انت عاوز يتجوز انا، عشان يسافر صح؟

- صح، وعشان حبيتك "قال جملته الأخيرة بكثير من الرومانسية، كانت أي فتاة عربية ستصدقه"!

- شوف، أنت لازم يقرر يتجوز انا، او يسافر مش ينفع الاتنين مع بعض!

- ازاي؟ مش فاهم.

- انا عاوز يتجوز انت ويعيش في مصر!

- نعم؟!! بتقولي ايه؟

هزت رأسها وشربت رشفة من قهوتها وهي تراقبه. كانت تريد وضعه في اختبار حقيقي، لم تكن تمانع من الزواج به، فقد راق لها، لكنها لم تكن لتصبح مجرد جسر يعبره ليحقق أحلامه.

- ٢٤ -

- أريد سريعًا أن أحصل على رخصة قيادة، لأقود السيارة بسرعتك هذه، ممتع أن يعبث الهواء بشعري ووجهي.

نظر إليها وابتسم.

- علمني قليلا.

- أعلمكِ ماذا؟

- قيادة السيارة، ليكن اليوم أول درس لنا في القيادة.

- لا، هذا صعب، أخاف عليك، كما أن الطريق سريع وفيه منعطفات كثيرة.

- لا، علمني الآن، أرجوك. ثم نظرت إليه بنظرة جعلته شبه مخدر.

أوقف السيارة جانبًا ليهدأ قليلاً، من فرط الحب. لكنها فتحت باب السيارة، وظنته قد وافق.

فتحت الباب من جهته لتنزله، لكنه عارض، حاول أن يمنعها، لكنها وعدته باتباع الأوامر. بدأ إصراره يتراخى، ومع قبلة على خده، لم يعد أمامه سوى استسلام الموافقة.

بدأ بالخطوات الأولى في التعليم. كانت تضحك والسيارة تتأرجح أمامًا وخلفًا. كانت تدوس البنزين بسرعة ثم تدوس الفرامل بسرعة أكبر. كانا شديدا الاستمتاع بوقتهما، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وقررت أن تنضبط بتعليماته، اتبعت الإرشادات بشكل سليم، ثم انطلقت ببطء، وأخذت تزيد في السرعة قليلا قليلا. طلب منها تخفيف السرعة لكنها صرخت بانتشاء أنها مستمتعة ولن تخفف سرعتها، كانت تقول له "انظر إلي! ألست طالبة بارعة؟"

كانت بارعة فعلا، لولا أن أول سيارة مسرعة قابلتهما أسقطت براعتها، ولولا أنه أمسك المقود وحرف السيارة لوقع حادث شنيع. أجبرها بصوت عال غاضب أن توقف السيارة. وطلب منها تبديل الأماكن. وافقت بصمت حزين. خلال القيادة اعتذرت له والدموع في

عينيها، وقالت: "كيف سأتعلم القيادة إذن؟"

- قال بحزم: يعلمك مدرب سواقة، أما أنا فلن أفعل. أنتِ لا تتبعين التعليمات وتتهورين، تتصرفين كأنك سائقة محترفة.

لاذت بالصمت فترة، ثم قالت بعد نصف ساعة من القيادة :"أرجوك جربني وأعدك أن ألتزم بالتعليمات" ثم سقطت دمعة كبيرة من عينيها. أحسَّ برعشة، وبألم لدموعها، كان الأصعب على نفسه أن تبكي. وافق بعد تعهد موثق بأن تلتزم بالتعليمات.

انتشت من الفرحة، بدلا أماكنهما، وعانقته في الطريق.

كانت تقود بحذر شديد كما طلب منها، وعند المنعطف، طلب إليها أن تخفف السرعة، وتنقل الغيار من الثاني إلى الأول، وتضغط على الفرامل، هزت رأسها موافقة، كانت تضغط على المقود بقوة، لم تكن مسترخية، لقد أخذت الموضوع على محمل الجد حقًّا.

غيرت ناقل السرعة، ولكن لقلة خبرتها نقلته للثالث بدل الثاني، وبدل الضغط على دواسة الفرامل ضغطت على دواسة البنزين، نبهها بصوت مرتفع قليلاً، ارتبكت نظرت إلى حيث قدمها، طلب ألا تنظر لقدمها، كان المنعطف قريبًا جدًّا، وصوت سيارة تقترب، ارتبكت أكثر،

ظهرت الشاحنة. أخذت تصدر صوت تحذير من بوقها، لم تدر ماذا تفعل، غير الناقل إلى السرعة الثانية وطلب أن تضغط على الفرامل بسرعة، فعلت، ولكنها نسيت أن تدير المقود، حركه بدلا عنها، ولكن قوة الضغط على الفرامل جعل السيارة تنحرف بقوة، لتصطدم بجدار الحماية على جانب الشارع، ثم لتهوي سحيقا في قعر الوادي.

أمام غرفة العمليات كانت الأم تولول ألمًا وحرقة، وتهذي بكلمات غير مفهومة، ضمها الأب إليه، وحاول تهدئتها. أقبل "هو" يعرج، كانت إصابته بليغة،وجروح في كل جسده، لكنه قام من فراشه، يبكي ويبحث عنها. ما إن رأته الأم، حتى هجمت عليه تضرب وجهه وصدره وكتفيه، كانت تصرخ" لقد قتلتها، حتى لا نبعدها عنك قتلتها، يا لك من وحش أناني" بكى، سأل عنها، كيف هي، هل ماتت؟ ثم جثا على ركبتيه يبكي.

وقفت فوق رأسه نظرت إليه بتعالٍ، وقالت بقسوة:" ليس لك حق في أن تعرف شيئًا عنها، ارحل من هنا"

- فقط أخبريني كيف هي؟

قال له الأب ببرود: فقط ابتعد من هنا أرجوك.

انهار على الأرض، أقبل بعض الممرضين يهرعون، نقلوا المريض إلى غرفته. في تلك اللحظة خرجت من غرفة العمليات، طمأنهم الطبيب :" الحالة مستقرة لكنها خطرة، الإصابة في الطحال، والكبد متضرر كذلك، ستذهب للعناية المركزة، حين تستفيق ستطلب شُرب الماء، ولكنه سيقتلها لو فعلتهم"

كان الأب والأم ينظران إليها من خلف الزجاج. كانت الأم لا تتوقف عن البكاء. استمرت في غيبوبتها ثلاثة أيام، وكان "هو" يتحين فرصة يخلو فيها المكان منهم ليزورها ويبكي، ثم يعود منهكا إلى سريره.

كان حين ينام بفعل المهدئات والمنومات يهذي "لقد قتلتها، أنا السبب".

بعد ثلاثة أيام استيقظت، سُمح لأهلها بالدخول عندها.

سألت عنه، فلم يجبها أحد، ثم ألحت "هل هو بخير؟" كادت تقوم من فراشها، فأجابها الأب "إنه بخير، لكنه يعاني من بعض الكسور والرضوض، فلا يمكنه القدوم. "

- هل أنت متاكد من ذلك؟

- نعم يا حبيبتي، وفي أقرب فرصة سيأتي لرؤيتك.

حدجته الأم بنظرة غاضبة، وخرجت من الغرفة، تبعها.

- ٢٥ -

مازالت راشيل تحت تأثير الصدمة التي لم يخفف عبئها إلا كلام أنيتا حول طبيعة عملها وراحة ضميرها الجزئية إثر تلك المحادثة الأخيرة التي اكتشفت فيها ذلك السر.

كانت تنتظر جاك بفارغ الصبر لتنتقم منه ولتفرغ في وجهه كل الغضب الذي احتشد في صدرها كالبلغم في صدر المريض.

بعث لها رسالة إلكترونية يخبرها بقدومه اليوم. يبدو أنه أرسلها من المطار.

تنقلت كثيرًا بتوتر بين الشرفة المطلة على الشارع، ونافذة غرفة النوم المطلة على مفترق الطرق المؤدي إلى العمارة.

ها هو! حبست أنفاسها، واستعدت للمواجهة، لا بد أن تكون الطرف الأقوى فيها، ولا بد أن تلعب بهذه الورقة جيّدًا، كما يجب أن تحافظ على هدوئها الظاهري لتقدر على جرحه وإيذائه بشكل أفضل. كانت شديدة الحقد عليه.

أدار مفتاح الشقة ودخل، استقبلته ببرود، دون أن تقبل خده كما اعتادا دومًا. شعر بتوتر في الأجواء، كانت باردة معه، بقيت صامتة، كان يثرثر ويراقبها.

- جاك، هل تحبني؟

- طبعا.

- كيف تسمح إذن بأن أتحول إلى فتاة مخابرات تسعى لتوظيف جسدها؟

بدت الدهشة في عينيه، سأل نفسه "كيف عرفت؟ لا بد أنها أنيتا" لكنه فضَّل عدم طرح تلك الأسئلة. ترك الهدايا التي أحضرها لها، توجه نحوها، وقال:"راشيل لقد أحببتكِ منذ عملت في ذلك الفندق، فكيف تتوقعين أن أتوقف بعد ذلك وأنت تقومين بمهمة عظيمة لصالح الدولة؟"

أنتِ في عيني بطلة كبيرة، لا داعي للشعور بالخجل أو القلق.

- لماذا رفضت أن تخبرني؟

- خفت عليكِ، لم أشأ أن تشعري بأنك مراقبة.

أرادت أن تتكلم لكن هاتفه النقال كان يرن، نظر إلى الرقم، استغرب، لا بد أن أمه تريد الاطمئنان عليه.

- آلو.

أنصت طويلا، ثم قال: ماذا تقولين؟

ثم أطفأ الجهاز.

أمسك راشيل من كتفيها، وقال بارتباك: راشيل، علي العودة إلى أمريكا حالا، أختي في خطر، أرجوكِ دعينا نكمل حديثنا حين أعود. لا ترحلي. قبَّل جبينها "أحبك"

- ٢٦ -

قالت "هي" حينما دخل جاك الغرفة في المشفى، ورأت الغضب في عينيه، كان يهدد بالانتقام.

- جاك، أرجوك لا تقسُ عليه، لا ذنب له، كان يمكن أن يموت في الحادث.

قال ببرود: ليته فعل!

أشاحت بوجهها غضبًا.

خرج مع أمه، طلبت منه أن يكون ألطف. أما الأب فجلس يطمئنها على نفسها وعلى "هو"

دخل جاك والأم غمزت لزوجها كي يخرجا معًا، بقي جاك معها،

ابتسم لها،

- أنا سعيد لأنكِ بحال أفضل.

- اليوم فقط خرجت من الغيبوبة.

- أريدك أن تفكري بنفسك، وأن تتحسني.

- أريدك ألا تقسو عليه.

- حسنًا.

- تعدني؟

- أعدكِ.

ثم طلبت من جاك شربة ماء. قدم لها شربة من الماء.

سعلت خفيفًا، ثم استراحت. دخل الأب والأم، كان "هو" يقف خلف الزجاج، جنَّ فرحا لرؤيتها مفتوحة العينين. حاول الدخول فأسرعت الأم تعترض طريقه، في تلك اللحظات، بدأت "هي" تضطرب. صار نبضها غير منتظم، ونفسها متقطعاً، صرخت الأم في وجهه :"أنت تربكها، اذهب من هنا" شعر بالرعب، تراجع خطوات إلى الوراء، حضر الطبيب مسرعًا، فحصها سريعًا، سأل بانفعال:"هل سقاها أحد الماء؟" ردَّ جاك :" نعم، أنا فعلت، لماذا؟"

خيَّم الصمت على ملامح الأم والأب، وضعت الأم يدها على فمها، ثم تمتمت :"لماذا فعلت ذلك، جاك؟"

لم يكن من وقت للشرح، صرخ الطبيب: ليخرج الجميع! حضر الممرضان، انقطع نفسها، وبدأ النبض يتلاشى، أسعفها ببضع صدمات كهربائية، لكن صوت الموت كان عاليًا جدًّا، أعلى من أصوات الجميع، لقد قال كلمته الأخيرة!

والموت حين يهجم، لا يبالي من استدعاه، فهو لا يحب المجاملات.

لا يبالي بخططنا المستقبلية، فهو لا يحب الانتظار، ولا يحفل بأعمارنا الحالية، فهو لا يمتلك قائمة بالمفضلات مثلنا.

والموت تستفزه النهايات الجميلة، والأحلام الوردية. يصبح عاطلاً أيام التعايش السلمي، والتسامح، والحالمون طيبون، كرماء حتى مع الموت، يستسلمون سريعًا له حين يخدعهم بأنه نوم لذيذ. لذا تراهم يبتسمون وهم ميتون، يظنون أنهم يحلمون وسيفيقون سريعًا.

لم يحتمل الموقف، تخبط كغريق مصفد بالأغلال، ركض يوقظها، لكن صوت الموت عالٍ جدًّا، فلم يسمع غيره.

ركض نحو الدرج..كان يعرج.. لم يشعر بأي ألم.. لم يتبعه أحد.. لم يبال به أحد.. لم ينتبه له أحد.. بحث عن أية سيارة في الموقف، حتى إذا وجد سيارة مفتوحة، ركبها وانطلق بأقصى سرعة، وتعمد أن يصدم نفسه بأول شاحنة يقابلها، لكن الموت وقف يراقب من بعيد ويضحك ملء شدقيه، حتى الموت لم يبالِ به، أشاح بوجهه عنه ورحل.

الموت يقوم بمهمته معه على مهل، ولا يحب أن يتدخل أحد في قراراته، الموت لا يحب أن يكون المشتهى، هو مراوغ، لا يحقق الأماني كبابا نويل.

- ٢٧ -

جلست أتأمل صورتها، ملامحها، بريق عينيها، لعلني كنت أبحث عنه فيها؟! لعلني أبحث عني وعن أشواقي الممزقة وأحزاني المبعثرة في عيون المعذبين.

أنا لا أنبش صدور الآخرين لأبحث عن أوجاعهم، فنبش القبور حرام. ولكنني كلما عزف أحدهم حزنه، غنيت، وكأن قلبي مستقر الأحزان ومستودعها. ليتني مسيح لآلام الآخرين! ليتني صليب يعلقون عليه أوجاعهم ويرحلون باسمين!

الجرح الوحيد الذي لا أطيق حمله ويقف في حنجرتي أليمًا فلا أنا أبلعه أو أخرجه، هو جرح وطني، ألم شعبي المعذب في كل بقاع الأرض. لا يكفي كل حمام الأرض كي يحمل في حواصله آلام شعبي، ولا تكفي كل بحار العالم المالحة لتنظف جراح وطني، فجرح وطني مسافر، وألم شعبي مائي الألوان، سائل كالمرايا. فإذا بلغ بأحدهم الحب مبلغه قال لحبيبته :"عيناك هما وطني". وإن كانتا سوداوين، فالظلام كما يقول السياب :" هناك أجمل لأنه يحتضن العراق".

أعود إلى التحديق في عيني الصورة، في عينيها "هي" كما يحب أن يسميها "هو".

تنظر إلي صورتها، هل تراني؟ كانت لحظتها تحدق في مصورها، وهي الآن تحدق فيّ وأنا أصورها بالكلمات، طفلةً بريئة اليدين والعينين، برزتْ من خلال الثلج الملتف حولها، وورود الخدين. توجعني نظرتها البريئة، وتعذبني. أشعر برغبة في العيش في هاتيك الجفون لحظة لأرى كيف كانت تراه، وتشعر به. ذلك العربي الصحراوي وريث عنترة أو النجدي المجنون. شفتاها شبه مفتوحتين، لا أدري بفعل البرد، أم أنها تتهيأ لسرد سرها الجميل على مسامعي همسًا.

تذكّرني صورتها بقِصة ليلى والذئب. سألت نفسي كثيرًا(لماذا)؟. هل لجذع الشجرة المطلة من خلفه علاقة بالأمر؟ هل أرى موتها ذئبًا غابت في بطنه؟ لم يستطع الصياد الشاطر إخراجها، فما كل حكاية تصدَق كلها! صورة مثالية لخيال فنان لو يرسمها. طفلة حزينة، على شفتيها الجميلتين قبلة الموت المفاجئ، وفي عينيها اللوزيتين حكاية غريبة ودوامات من الحنين والأنين. شَعرٌ ليّن للريح. والثلج حولها يكفن الأرض، أرأيت مرَّة كيف يبكي الثلج لحظة التقائه بالأرض؟ أسمعت صوته مرَّة يذوب حنينا إلى اللحظة السابقة؟

وتسألني الصورة: أين التي كانت؟ أين أنا الآن؟ وما أخبار ضحكاته بعدي؟ ولا أملك الجواب.

كل ما أملكه قِصة دهشتي حين قابلت الصورة، كان موعدًا على غير لقاء. وعدته ليلتها أن ألتقيه على المسنجر، سألني عن تصوري لشكلها، فقلت: طويلة، نحيفة، ذات شعر خروبي، وعينين لوزيتين. قال :"بل أكثر، شفتان حزينتان"

تعجبت.. وهل للشفتين أحزان؟! قال: نعم.. حين تنحبس خلفهما دموعهما، وبعض الصمت ألم.

ثم على غيَّر عادته، أرسل إليَّ ملفًا، وصمتت أصابعه. فتحت الملف، فرأيت طفلة عذبة معذبة. استيقظ حدسي متأهبا للمفاجأة. سألني :"هل هكذا تخيلتها؟". صراحة، لم أكن مهتمة بمقارنة خيالي بحقيقتها، كان أمرًا هامشيًا بالنسبة لي أن ينتصر خيالي. كنت سعيدة بإعدام خيالي مقابل حقيقتها، رغم اعترافه بدهشته من قرب خيالي للحقيقة.

لم يكن وجود تلك الصورة على جهازي أمرًا طبيعيًا بالنسبة لي، أو حدثًا عاديًا. أن يرسل صورتها إليَّ، هذه ثقة كبيرة. وفي عُرف المحبين، الصورة حبيبة صامتة.

استأذن بسبب فارق التوقيت بين البلدين وخرج لصلاة العشاء. هو راح وأنا بقيت أتأمل الصورة.

ليته يعلم أنني أحزن حزنه كما يحزنه، وأتعذب عذابه، ليته يعلم أننا نتقاسم خبز المسيح وخمره كل ليلة على مائدتها، فإذا راح لملمت بقايا القصة الحزينة من أركان جوانحي وسكبتها في روحي. دائمًا كنت أردد" الحزن يفجر الفن والليل يجليه لوقته، ثم يغسله الصباح". ولكن حزني عالق بجوانحي، يسكن ضلوعي، فإذا استيقظَتْ من نومها روحي، انفتحت معها جروحي، وانسكبت على جلدي، حليبًا بلوريًا يصقلني.

كان متلبسا بها، حالة تلبس كان يعيشها بين عسل شفتيها كما يحب أن يصف ريقها، وعذوبة روحها. مرجوحة تعلو به مرة وتهبط أخرى تجاه جسدها الترابي.

يعيش حالة عجيبة ؛ سكن الألم جدران روحه وجدران غرفته. كان يشم عطرها العالق بثيابها. كلما شده الحنين رش الملح على الجرح، فتح خزانته المتخمة بزخم الذكريات الحزينة، تنورتها وآخر ثيابها وجع يستحضر وجعا. يمد ثيابها على سريره في طقوس من القداسة كأنه يستحضر روحها. حتى إذا أعياه تعبا أن تسكن فيه، سكن فيها فصبغ جدران غرفته بألوان تنورتها وعلى شكل خطوطها. لعله بنظركم ضرب من الجنون، لكنه، كما لمست عنده، نوع من الراحة تنال على جسر من التعب.

❋❋❋

ما هو الحب؟

بعثت للفيلسوف تسأله.

ردَّ عليها: "هو كسل عن رؤية آخر أفضل ممن سبق"

صدمها كلامه. أرسلت تعترض: "وهل الحب رحلة بحث عن الأفضل؟ أكلما رأينا شخصًا خير ممن سبق سنترك محبوبنا لنلتحق بحبه؟"

ردَّ عليها:" نعم، هو كذلك، ألم تري كيف أن النبي إبراهيم ظل يبحث عن الأكبر والأكمل في رحلة بحثه عن محبوبه الأبدي؟" الله " ولا يكون الحُبُّ حُبًّا حتى ترى محبوبك قد بلغ من الكمال الذي تنشده حدًا تتغاضى معه عن عيوبه، بل وأن تحسب تلك العيوب مزايا. "

علقت:" هذا حب المراهقين! ماذا لو استيقظ المحب يومًا، فانتبه لعيوب محبوبه؟ سيتوقف عن حُبِّه ساعتها. بل أرى أن الحب هو وعي كامل بالمزايا والعيوب، فأنت تغض الطرف عن العيوب مقابل حبك لهذا المحبوب. ولو أن كل الناس بحثت عن الأكمل، لعشق الرجال جميعًا امرأة واحدة، ولعشقت كل النساء رجلاً واحدًا.

أرسل معلِّقًا، بعد قطار جرار من هاءات الضحك:

-ما دمتِ لا توافقين على كلامي فلم تسأليني؟ على كل حال لأجل هذا تتفاوت الأذواق، فما ترينه كمالا يحسبه غيرك نقصًا وعيبًا لا يمكن تقبله، لذا استريحي لن يحب كل الرجال امرأة واحدة ويتركوك!"

يا للوقاحة! ثارت لنفسها غضبًا فكتبت له ردًّا طويلاً تقول فيه:

-عُدّ كلامي من باب المناقشة الفكرية معك، احسبني أفكر بصوت عالٍ لأصل إلى نتيجة مريحة. أريد أن أعرف كيف أحبها بهذه السرعة، ولماذا ينسى بعض المحبين، وبعضهم لا ينسون إلا إن زالت الجبال؟

سأخبركَ رأيي في نظرتك للحُب:

"الحُبُّ خطيئة كبرى إبحار مع التيار

الحُبُّ أكبر جريمة عرفتها البشرية! وأكبر خدعة تمارسها ذواتنا ضدنا وضد الجمال..

كنت أظن الحُبَّ أجمل حل سحري لكل عقدنا

وردة نقدمها في كل مناسبة

افتح يا سمسم التي تحرك الصخرة الجامدة

لكنني بعدما بلغ الكبَر بقلبي عتيًا، أدركت متأخرة جدًّا أن الحب كذبة كبيرة ضحكنا بها على أنفسنا، كتلك التي خوفنا بها الكبار عن الجمل في البيارة فكلنا جرجاوي قائم بذاته!

من منا يعشق الوردة لأنها جميلة بذاتها؟ نعشقها لأنها تمنحنا شعورًا بمتعة مشاهدة الجمال! لذا أحببنا الورد وكرهنا الشوك..مع أن الأغنام تأكل الشوك.. لو كنا بهائم لأحببنا الشوك ولأحببناه جدًّا!

نحب الله، لأن النفوس جبلت على حُبِّ من أحسن إليها(حديث شريف) وحينما نسامح في حقنا "فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" لأنه قدَّم خيرًا لنا، للأنا!

نحب الله لأن خزائنه مليئة، ولو كان الحاكم شعبيًا لكرهناه!

عندما نحب نسبغ على المحبوب لو وصل بنا الحب أبعد مدى لقبا، نصير نناديه بـ (يا أنا) نجرده من ذاته ليصبح ظِلا لنا! وكأننا منحناه أغلى شيء في الوجود، وكأننا لم نسرقه ذاته.

ما هو الحب؟

أحد اثنين:

الأول، إفرازات في الجسم تؤدي إلى ازدياد ضربات القلب تنتج شعورًا لذيذًا، مما يدفعنا إلى المحافظة على أسباب توليد هذا الشعور، وهي قرب المحبوب. إذن وظيفة المحبوب مضخّة شعور!

والتفسير الثاني، أن هذا المحبوب قريب من ذواتنا، قريب من (الأنا) فكرًا وشعورًا، وبحسب قربه منا نكرمه ونحبه لأنه يرسمنا نحن! مرآتنا وسفيرنا نحو العالم.

المحبوب حين يشبهنا فإننا نحبنا فيه.

لذا فإن الحب خطيئة وتجاوز لحق من حقوق الإنسان الحر!

جريمة يجب أن تعاقب عليها منظمة حقوق الإنسان، ويجب أن يعاقب عليها مجمع اللغة لأنها تغييب متعمَّد لكل ضمائر اللغة، الإبقاء على ضمير واحد هو (أنا) "

صمت طولا حتى حسبته قد ذهب، لكنه ردَّ:

-حسنا، لنفرِّق بين نوعين من الحب.. أن تحب الشخص لأنك تحب فيه ذاتك، أو لأن نفسك تحتاج إليه، وهذه نرجسية، وأنانية، تؤدي بك إلى الرغبة في امتلاكه.

وأن تحب شخصًا، لأنك ترتاح إليه، وتحترمه وتعجب به، ثم تستأنس للحديث معه، وكأنك تحدث نفسك، يصبح قريبًا منك كروحك، لكنه لا يذوب فيك ولا تذوب فيه، تتحدان روحا، ولكنهما مستقلان فكرًا وجسدًا.. هذا هو الحب غير المشروط، تتقبله كما هو ولا تسعى إلى تغييره، ليكون ظِلًّا لك وعلى مقاسك.

أرسلت له وقد راق لها الكلام :

-والحُبُّ الذي يجعلنا الحلقة الأضعف ليس حُبًّا، بل هو تسلُّط، إذ لا بد للحب أن يكون طاقة إيجابية فاعلة، متبادلة بين الطرفين، ليصبح

كلاهما مولدا للحب، قادرا على منحه واستقباله، الحب- بنظري - لا يجيده سوى الأقوياء.

ويمكنني أن أقول بثقة إن الله يغار على قلب من يحبه، فإذا سبقه أحد إلى قلب عبده، حرمه من ذلك الحب، أو أدبه بما يوازن مشاعره في نفسه.

أما إن كان القلب تائهًا عن ربه، فإن الله لا يبالي به من سكنه.

وكلما ازداد تعلق المرء بربه، خفّ ألم فراق الأحبة من البشر في قلبه، فلا يروعه خائن، ولا يكمده بائن.

أرسل لها بما يشبه السخرية:

- جيِّد جيِّد، أنتِ تتحسنين وتتعلمين بسرعة! لكن لماذا تسألين؟ ما علاقة كل ذلك بروايتك؟

- حسنا، كنت أفكر في "هو"، أعاشق محب مخلص؟ أم مريض متعلق بذات لا يشفى منها؟

إن محاولته للانتحار بعد موتها تجعلني أقف حائرة أمام هذه النوعية من الناس. وكنت أفكر بالمقابل في راشيل، هل تحب جاك حقًّا؟ أم تحتاج إليه؟

ردَّ عليها بقسوة، كأنه لم يعجبه، كانت تتخيله وقد قلب شفتيه وهزَّ كتفه حين كتب لها:

- هذا شأنكِ سيدتي، وليس من حقك حتى أن تحاكمي مشاعر الآخرين، قدّمي بضاعتك والزمي ذاتك، ولا تتدخلي في غيرك!

"يا لهذا! كم هو مغرور!" كانت تقول لنفسها وهي تقرأ بدهشة وقد فتحت عينيها عن آخرهما.

-إنها روايتي أنا، أليس من حقي أن أقيم محاكمة عادلة لشخوصي؟

ردَّ عليها:

-هل تجرؤين على محاكمة النوايا أو ادّعاء امتلاك الحقيقة كاملة؟

***

مرَّت ثلاثة أيام قاسية، كانت راشيل لم تأخذ قرارها بعد، كانت تنتظر جاك. يتنازعها شعور بالقلق منه والقلق عليه.

لم يتصل بها، لذا استغربت حينما رأته يدخل الشقة بلا موعد مسبق. استغربت أنه حتى لم يقدم لها خده لتقبله. شعرت بأمر غريب في عينيه ووجهه.كان وجهه حزينًا مرهقًا.

بدأت تتفحصه، هل هو التهرب من أي نقاش؟ لا للمراوغة!

جلست بجانبه، وقالت بصوت عال فارغ من أية عواطف:

- كيف كانت رحلتك؟ كيف هي أختك؟

التفت إليها وهز رأسه بصمت.

لا، الوضع غير طبيعي، هناك شيء ما.

بدأت تتفحصه باهتمام أكبر : جاك ما بك؟ هل أختك بخير؟

نظرَ إليها طويلاً وأخذت أنفاسه تتسارع ثم ألقى برأسه على صدرها وانفجر في البكاء.

-جاك، ما الذي يجري بحق كل ما هو مقدس؟

-لقد ماتت!

- من ماتت؟

قالت بفزع

- أختي، لقد ماتت.

- كيف حصل هذا؟ كان الأسف باديا في صوتها.

شعرت الوقت غير مناسب لأية مواجهة أخرى.

انتظرت حتى هدأ، ثم بدأ يخبرها بكل ما جرى. لم يقل لها شعوره

ولا موقفه، لكنها شعرت أنه يشعر ببعض الذنب. شربة الماء تلك! تحيي العطاش وتقتلها هي!

حاولت مواساته بكل قوتها، شعرت أنه بحاجة حقيقية إليها، في تلك اللحظات وهو ملقى الرأس على صدرها، شعرت بحنان كبير تجاهه، نسيت كل شيء لحظتها. شعرت أنه يحبها ويهتم لأمرها ويهرب إليها.

بعد يومين، حين هدأ، أخبرته وهما يتناولان طعام الإفطار، أنها ستقدم استقالتها شارحة أسبابها، وأخبرته أنها سددت جزءًا كبيرًا من ديونه.

قالت ذلك بما يشبه التقرير الذي ترسله لمديرها عادة. كان كلامها خاليًا من أية انفعالات، وكأنها تنقل له خبرًا في التلفاز.

بقي صامتًا، لم يعلق، لكنه كان يراقبها دون أن تشعر، يرصد انفعالاتها، ويحاول اختراق قلبها وعقلها. كان يريد أن يفهم كيف تفكر، وماذا ستقرر. لن يقف صامتًا إزاء كل ذلك، لن يخسر مجددا شخصًا يريده، يكفيه خسارة واحدة.

اتصل هاتفيًا، وأخبرها أن تجهز نفسها، فوراءه مهمة يحب أن تنجزها معه.

جهزت نفسها ظهرًا بصمت، دون أي فضول لتعرف إلى أين سيذهبان، بكل الأحوال هي تثق به. هل تثق به حقًّا؟ بعد أن ورّطها بتلك المهنة؟ لا وقت للأسئلة الآن، لم تكن من النوع الذي يستفيض في فهم ذاته، أو التدقيق في تفاصيل ما يريده، كانت تستلم للأحداث تقودها. كانت سهلة الانقياد، وانفعالاتها وقتية كشمس الشتاء.

توقفت سيارة جاك أمام مشفى هداسا عين كارم، ومن جيب السارة أخرج كيسين ضخمين، لكن وزنهما معقول. حملهما معه، ودخلا. صعدا إلى الطابق الثالث، حيث قسم السرطان، نظر إليها بحنان وقال لها: كنت آتي إلى هنا مرَّة كل عام، لأقدم هذه الهدايا للمرضى، العرب واليهود والمسيحيين.

كانت تعرف أنه فقد حبيبته السابقة بسبب مرض السرطان، لكن الذي أدهشها في الموضوع أنه وهو يوزع الهدايا كان لطيفًا جدًّا مع المرضى، حتى العرب والمسلمين منهم. لم يكن يميز بين أحد.كان يبتسم لهم بصدق. كانت نظرات عينيه تتألم بصدق لمعاناتهم.

عندما خرج من إحدى الغرف، قال لها: أريد أن تشاركيني هذا العمل من الآن فصاعدًا، سنأتي مرتين في العام، مرَّة لأجل صديقتي

السابقة رحمها الله، ومرَّة لأجل أختي. هل توافقين؟

كانت منبهرة لدرجة لم تملك إلا هز رأسها موافقة بسعادة. كانت تشعر براحة شديدة، لم تعرف، هل السبب أنه يشاركها أشد أموره خصوصية؟ أم أنها رأت فيه الإنسان الذي بحثت عنه طويلا، وضاع في ثنايا تجربتها القاسية في عملها؟ شعرت بغصة وهي تتذكر عملها، لكنها أزاحت كل تلك الأسئلة من رأسها، لم ترهق نفسها بالجواب، الآن في هذه اللحظة، اكتفت بأنها مرتاحة، تفضل الاستمتاع بلذة توزيع الهدايا على إرهاق البحث عن إجابات.

***

عزيزي الفيلسوف:

حتى أعتى المجرمين، حينما نجيد قراءة دواخلهم، سنجد في أعماقهم إنسانًا حقيقيًا يقبع هناك.في كل منا إنسان، يظهر في الوقت المناسب، ولا يشترط أن يظهر في كل وقت وآن، أحيانًا يضمحل بسبب ظروف معينة تجبره على ذلك، لكن تبقى الإنسانية جزءًا منه، تظهر مع أولاده، زوجته، أحبابه.

ردَّ عليها:

-أيتها الحمقاء الطيبة، الإنسانية لا تتجزأ. فإن ظننت أنها قد تتجزأ حقًّا، فأنتِ تعانين من ازدواجية المعايير.

شعرت ببعض الغباء والخجل من فخرها بما أرسلته، تمنت لو أن زر "delete" يمكن استخدامه للعقول، فينسى ما أرسلته، ليس لها الآن إلا أن تتسلح بتواضع المتعلم، والاستفسار أكثر عن رأيه، فقد رأت فيه صوابًا.

-ماذا عن الممثلات اللواتي نراهن يقدمن النفيس من مالهن لدعم المساكين والجائعين في كل العالم، خاصة إفريقيا؟ هذه قمة الإنسانية، أليس كذلك؟ إنهم مضرب مثل لها.

-إنهن يفعلن ذلك لراحة الضمير، فكم من ممثلة سحقت أخريات في طريقها للصعود! وما زالت تفعل. وكم من فنان في الخفاء دعم رجل سياسة قذر لا يبالي بسحق الجياع، ليصل إلى قمة شهرته؟

ومن لم تسعفه إنسانيته مع من يكره، فلا جدوى لها مع من يحب. الإنسانية ليست قناعًا نلبسه وقتما شئنا، ما جدوى أن تكون إنسانًا مع حبيبك؟ وتتخلى عن إنسانيتك تحت أية ذريعة مع عدوك؟ إن كان يغفر الله للمحسنين فقط فمن سيغفر للمسيئين؟ وإن كنت ستتخلى

عن إنسانيتك مع عدوك فمن سيتصفهم منك إذن؟

أن تكون إنسانًا يعني أن تكون رحيمًا مع من تحب، عادلا مع من تكره. إذ ليس من حق أحد أن يصنف أحد، فهذه دماء زرقاء وتلك دماء زائدة عن الحاجة.

***

عاد إلى السعودية، يجرجر ذيول الخيبة.. ليل موجوع ونواح داخلي يصرعه فيبين على عينيه وفي حروفه الموجعة. بقيت في روحه زوايا مظلمة حجبت الرؤية عن أهله. هناك حيث يعيش كان الحُب حربًّا. فكيف إذا كان ليهودية؟! ورائحة الكولونيا تعبق كلّما تنفَّس ذكرى حبها، فينحني عليها يلملمها فينكسر ظهره وهو لا يشعر، ويشتد صراخ أهله يعلو حربًا على الذكرى.

عندما يلتقي الخيال والواقع معًا. ضدان من حزن ومن فرح، دقات بيانو تراقص نواح الكمان. خياله الذي أرسله خلفها ليصطاد خيالها، وكما قال محمود درويش "الخيال كلب صيد وفي"!

يتأمل صورتها.. طفلة بريئة.. يضمها.. يمسحها بشفتيه.. ازداد

حرصه عليها بعدما عمد أهله إلى إحراق شريط الفيديو الذي يضم مشاهد تلقائية لممارستهما حقهما بالحياة وبالحب. اشتعل وقتها غضبًا وألما. اعتداء صارخ على ذاته، وهو الذي تشبع بحفظ الخصوصيات في أمريكا. كان بإمكانه أن يصور ألف نسخة من الصورة أو الشريط خوف الضياع، ولكنه عدّ ذلك امتهانًا لفردية محبوبته ذاتها.

وفي أمريكا في بقعة أخرى منها قِصة حياة أخرى. كانت آنا تخرج ما في حقيبتها، لتعيد ترتيبها في الخزانة. كانت في سعادة غامرة، وتشعر برضا عن النفس لتلك الإنجازات، كانت تقول لنفسها: "نعم، كانت زيارة مصر خيارًا موفّقا في هذا التوقيت بالذات."

وقفت أمام شرفتها، كان الوقت غروبًا، سرحت في كل ما جرى:

لعل موقفي مما يجري في مصر خاطئًا، لكنني فعلت قناعتي، ولعل الإخوان فاشلون، لكنني انتصرت لما أثق أنه صواب. لعلَّ ولعلَّ، لكنني شاركت في حدثٍ تاريخي سيُكتب وسأخبر أحفادي عنه بفخر أنني بقيت إنسانًا يعرف ما يريد ويدرك أبعاد ذاته ومكونات هويته، يكفيني أنني صادقة مع نفسي، وانتصرت لما أومن به، بغض النظر عن مدى ثقتي بالإخوان. المسألة ليست شخصية، فحين تكون إنسانًا، ستشعر بضميرك

مرتاحًا، وستشعر أنك حُر كذلك الطائر المحلِّق في الأفق.

أما طارق، فلن أكون جسرًا يعبره، وسأنتظر رده، لقد لقنته درسًا في المواجهة، والاعتماد على النفس.

يحتاج المرء كل يوم، وفي كل موقف إلى أن يقف مع نفسه وقفة صدق ومواجهة. عليه ألا يركن إلى أنه بخير، لمجرد خير فعله يومًا ما، فالنفس شديدة التقلب، سهل عليها خلق التأويلات المريحة، لتركن إلى الكسل والخمول. كل موقف جديد هو اختبار جديد، واكتشاف للنفس جديد. لا يهمني من أكون أو ماذا أكون، المهم أنني أعرف يقينا ما أنا عليه الآن، وأتعامل مع ذلك بواقعية، وأتقبل ذلك. وفي الوقت نفسه لا أطالب أحدًا بأن يكون ظلا لي ولا نموذجا لما أنا عليه. فليس المهم أن نتكلم مثل بعضنا لكن مهم جدًّا أن نفهم بعضنا، ونتقبل بعضنا، لنعيش بسلام.

***

قال لها الكاتب من رام الله:

حسنا يبدو أن روايتكِ في النهاية للحل، فماذا ستكون النهاية؟ أنا

في شوق لأعرف كيف ستعالجين أوجاع شخوصك، وما الحلُّ الذي تراه عينك لأوضاع حياتية مشابهة؟

تأملت كلامه باستغراب.. النهاية؟ ولكن راشيل لم تقرر بعد مسار علاقتها بجاك، وآنا لم تقرر بعد إن كانت ستمنح ذلك المصري ما يريده، لا أعرف هل تريد أن تساعده حقًّا ليسافر معها وتتزوجه ثم تعود لتعيش في مِصر التي تحبها، أم أنها ستمنحه فرصة التفكير في البقاء والبناء في بلده. أنا لا أعرف حقًّا إن كان ذلك السعودي سيحفظ ذكراها أم أنه سيبدأ من جديد.

-دعني أخبرك ما سأفعله بما تسميه النهاية. دعني أخبرك برأيي حول النهايات.

أنا لم اقتنع قط بنهاية رواية، فدائمًا ما أجيل خيالي فيها، وأتخيل حلولاً أخرى ما لم تعجبني الخاتمة أو البداية. كانت معلمتي تعطينا بداية قِصة قصيرة وتطلب منا إكمالها، ثم تنتظر منا لتقرأ لنا النهاية الحقيقة لها. كنا نضحك بشدة من الفروق العجيبة، والموازين المختلفة ووجهات النظر.

إن نرجسيتا العميقة ككُتَّاب، لا تتيح لنا مشاركة القارئ فيما نكتب،

فنحن نبنيها، في القسم الأول من النص لنقوم بكل عبثية ومتعة الأطفال بهدم كل ما بنيناه بحلول مقترحة! نحن لا نترك للقارئ أن يشاركنا متعة الهدم! القارئ بين أيدينا مجرَّد متلقٍ يستمتع بطفولية غامرة قِصَّة نسجناها من تخيلاتنا! يا لغرورنا المتضخم ونرجسيتنا المريضة! يا للقارئ المسكين! يا للقصة الشاحبة! والنهايات الموءودة!

***